الشخصيّات العشرون

صور لشخصيّات من الماضي القريب

تأليف

محمود تيمور



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الفهرس

إلى القارئ

ليس كالتاريخ لون من ألوان الكتابة يجمع بين العلم والفن ، وبين النقد والأدب .

يجب أن يتوافر للتاريخ حظه من الدقة العلمية فى تحرّى الحقائق .

وأن يواتيه الفن بقبسته الخلاّقة التى تبث فيه النبض .

وأن يوفّيه النقد حقه من التحليل والموازنة والتمحيص .

وأن يسبغ عليه الأدب حلة شائقة تسلكه فى عداد الكلِم الطّيب .

فإذا خلص التاريخ للعلم ، فهو مجرد نسق لمعلومات ، وسرد لأحداث .

ومتى غلبت عليه نزعة الفن ، لم يزد على أن يكون زخرفاً طليّا فحسب .

فإن لم يكن إلا نقداً كان محض تمييز بين غث وسمين .

وحين يستأثر به الأدب ، ينقلب إبداعاً بيانيًّا يقف أثره عند حد الإمتاع بفتنة التعبير وروعة الأداء .

وتراجم الأشخاص تاريخ ، يتطلب إعدادها ما يتطلب التاريخ من جمع بين علم وفن ، وبين نقد وأدب ، على السواء .

وما ينبغى لى أن أزعم أن كتابى هذا من « التاريخ » ، تكاملت له أدواته . . . ولكنه مع ذلك نوع من الترجمة لعشرين من الشخصيات ،

جمعت بيني وبينهم معاصرة ، ووصلتني بأكثرهم صحبة أو ألفة ، بيد أن أكبر ما حببهم إلى نفسي ، وقرّبهم إلى عقلي ، هو تلك الآصرة الفكرية الوثقى .

لقد عرفتهم عن كثب . . . قرأت لهم كراماً كاتبين ، أو نعمت بمجلسهم متحدثين ، أو خالطتهم إخواناً خلصاء ، فاستشعرت لهم تقديراً ، وأكننت لهم ودًّا ، وتمثلتْ لكل منهم فى دخيلتى صورة خاصة ، فوكلت إلى القلم أن يبرزها كما هى فى دخيلتى . . . صورة تجلو أوضح المعالم ، وتكشف عن جوهر الخصائص ، وتوحى بما سما إليه صاحبها من مكانة فى بيئته ، وما أعقب من أثر فى ميدانه .

ولكأنى بما صنعت قد ابتغيت أن أسجل لتلك الشخصيات حياة يخطها القلم حروفاً وكلمات ، كما يسجل الرسام الملامح والسمات حين يسويها بألوان وظلال .

فإذا لم يصدق على تلك الصور أنها « تاريخ » تحققت له عناصره ، فحسبي منها أنى التزمت فيها صدقاً وأمانة وخلوص نية ، ولعل التاريخ — بشفاعة ذلك — يأنس بها أنساً يستمده من قيمة أولئك الذين عنانى تصويرهم فى هذه الصحائف ، وهم — بما كان لكل منهم من نبوغ فى فنه — أعِزّاء على تاريخ الفكر الموصول بحياة الإنسان على مرّ الزمان .

محمود تيمور

أحمد لطفى السيد

ليس من المتعذر على كائن أن يرسم صورة واضحة الملامح والقسمات « للطفى السيد » ، دون أن يجالسه ، بل دون أن تقع عينه على رسمه . . .

فالرجل يحيا فى دنيانا هذه ، لا بجسده وشياته ، بل بفكره وعقله . . . متى استوعبت آراءه وتأملاته ، تمثلت لك على الفور صورته واضحة تمام الوضوح . . .

إنه فكرة أكثر منه جسداً ، وعقل أكثر منه مادة ، وقوة تحس أكثر منه خلقاً يلمس . . .

إنه أدنى شبهاً إلى الخط المستقيم الذى هو أقرب بعد بين نقطتين ، ولكنه ليس بالخط السطحى ، يجرى به المداد على القرطاس . .

هو خط متغلغل يصل إلى أعمق الأغوار من الفكر الإنسانى الأصيل .

خط مستقيم لا غير . .

خط سريع الحركة ، يندفع من نقطة البدء إلى نقطة الانتهاء ، كتيار النور ، شديد التألق ، يبلغ الهدف ، كالقذيفة الصائبة !

إذا لمحت هذا الخط يرف فى سماء الفكر ، أغناك عن خطوط كثيرة أخر ، تمتد حيناً وتتعرج حيناً ، وتلتف هنا وهناك ، يحسب الغافل أن

فى امتدادها والتوائها وتذاؤبها سر عظمتها ، ولكنه فى الحق لا يصيب منها غير إخفاق التجربة ، وضيعة الوقت ، وسوء المصير .

إنه كلمة واحدة . . .

لفظ غنى ، يزخر بكبار المعانى ، فيه غناء عن مقال ومقال . . .

إن رسالة البعث للشرق وتجديد شبابه ، تلك التى هبط بها «الأفغانى» ونفخ فى روحها « محمد عبده » قد انتهت إلى يد » لطفى السيد « فحمل شعلتها وظل يذكيها ، ويتخطى بها أشواك العقبات والعراقيل . . .

وما برحت هذه الرسالة حتى اليوم فى يده ، ومن حوله جيل هو صاحب توجيهه فى النهوض والمضى إلى الأمام . . .

لقد تسلم « لطفى السيد » المشعل ، يوم كان وقوده الزيت ، فلما وجد الزيت غير صالح استبدل به النفط ، ونحن نراه اليوم يستبدل بالنفط قوة كهربية ، وكأننا نراه يفكر فى أن يزود مشعله بطاقة الذرة إن كان لها أن تنير !

وتلك هى الأمانة الكبرى التى تناط بحملة المشاعل فى الأمم النواهض . .

واجبهم مسايرة الزمن ، وملاءمة التطور ، والعون على التقدم والسبق ، دون اكتراث بالتزمت والجمود . . .

نادى « لطفى السيد » بالوطنية المصرية ، يوم كانت الوطنية فى أوج حميتها لا تعرف غير الوطنية العثمانية ، فكان الخفقة الأولى فى ذلك القلب المصرى الذى ينشد مكانه بين الوطنيات الخالصة . . .

أدرك هذا الرجل ببصيرته العبقرية أن الإمبراطورية العثمانية إلى زوال فكأنما أزاح الستار عن طوايا الغيب ، فتبين له أن هذه الإمبراطورية ليست فى ضخامتها إلا ورما يوشك أن يتراخى ويضمحل ، وأنه لا خير « لمصر » إلا فى أن تعول على نفسها ، لإيقاظ وعيها القومى ، ودعم استقلالها الوطنى .

ولم يلبث الغد أن كشف عن وجهه ، فإذا هو مصداق ما بشر به « لطفى السيد » بالأمس ، فكانت فكرته نواة الثورة المصرية التى آتت أكلها فيما بعد . . .

واليوم وقد استتبت فكرة القومية المصرية ، ورسخت جذورها ، وتسامقت فروعها ، وجد « لطفى السيد » عالم الحضارة يتطلع إلى تآلف وتآزر واتحاد ، فألفيناه يتمثل هذه الفكرة ، ويعبر عنها فى تأييده «للجامعة العربية » على أساس أنها صلة بين أمم : « اتسعت بينها دائرة المشابهات ، وضاقت دائرة الفروق » !

ليس « للطفى السيد » كتاب حافل من تأليفه ، شأنه فى ذلك شأن سالفيه : « الأفغانى » و « محمد عبده » . . .

كل ما لهم أفكار ومبادئ وآراء يبسطونها حيناً فى توجيه أو إيحاء أو عمل ، ويرسلونها حيناً فى حديث أو خطبة أو مقال ، وإن قومهم ليلتقطون ذلك كله فيجمعونه ، كما يلتقط الحواريون والتلاميذ والشيعة ما تتمخض عنه عبقريات القديسين والفلاسفة وقادة الأمم . . .

إن هؤلاء القديسين والفلاسفة والقادة لا يفرغون عادة لتأليف وتدبيج .. حياتهم كتاب يمتد ويتجدد وينمو ، وأيامهم صفحات مسطورة ناطقة تتملاها الأعين ، وتستملى منها الآذان ، وتهفو إليها القلوب !

أكبر ما يتميز به « لطفى السيد » عقليته الإنسانية ، تلك العقلية الحرة الطليقة التى لا تحدها قيود وأسوار ، فهى بما لها من أجنحة خفاقة لا تعجز عن التحليق فى شتى الآفاق . . .

ولعل ذلك سر ما نراه من ألفته للفلاسفة الإغريقية ، وبخاصة صحبته الأصيلة « لأرسطو » المعلم الأول ، الذى كان مناط فلسفته هو « الإنسان » فى أوسع زمان وأرحب مكان !

ليس بدعاً أن يكون « لطفى السيد » كصاحبه : « أرسطو » مأخوذاً بالطابع المنطقى الذى هو التناسق والتوافق على أساس من سلامة المقدمات وصحة النتائج .

ترى ذلك واضحاً فى فكره وقوله ومسلكه ، فى هيئته وشارته ، حتى إن لبوسه ليكتسى بذلك الطابع ، فأنت تشهده أنيقاً ، ولكنك تشعر بأن أناقته من نوع خاص ، لعل أصدق وصف لها أنها « أناقة منطقية » . .

بنيقة منشاة ، ورباط رقبة منتظم العقدة ، وحلة كأنما صب فيها قوامه صباً محكماً يكشف لك عن رشاقة نبيلة .

وما حديث « لطفى السيد» إلا مظهر آخر من المنطق المتزن ، فى غير غلظة ولا جفاء .

يخيل إليك ، وأنت إليه مستمع ، أن الكلمة لا تنفرج عنها شفتاه إلا بعدأن تجوز فى مخيلته بأدوار وأطوار لا تقل فى نظرى عن أطوار الجنين التى يجتازها حتى يتخلق بشراً سوياً . فهو لا يتفوه بالكلمة إلا محكمة مكتملة النمو ، ولا يلقى بها إلا فى موضعها الذى ينتظرها لتملأه .

لذلك تميز حديثه بالأناة والاقتضاب ، وإننا لنراه يستعين بلفائفه يشعلها واحدة إثر الأخرى ، متخذاً منها فرص روية ، ومهلة تأمل ، حتى لا يضجر السامع بما يكون من فترات الصمت . . .

وخليق بجليس « لطفى السيد » أن يضجر بصمته ، إذ يفوته بهذا الصمت أن يستمتع بما لحديث ذلك الفيلسوف من روعة وسحر .

وإن الحكمة القديمة تقول :

« إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » .

ولكن من يجلس إلى » لطفى السيد « مستمعاً إليه ، يشعر دائماً بأنه إذا كان السكوت من فضة فالكلام من ذهب !

طه حسين

أسرة طيبة ، تحيا حياة الريف الصميم ، فى قرية من القرى الصميمة ، بين ذريتها طفل كسائر الأطفال ، يظل إلى السنة الرابعة من عمره يتنفس فى جو الريف ويعيش فى منزل زاخر بأهله ، فى رعاية أب هو العائل السيد .

ولم تكن حياة هذا الطفل مظنة لتعقيد ، فماضيها وحاضرها ومستقبلها واضح لا يحتاج إلى كبير تفكير . . .

خطة فى الحياة مقررة ، ومنهج فى الدراسة مرسوم .

ليس عليه إلا أن يسير فى طريقه كأسلافه ، وكمن يعاصرونه ، وكمن يلونه . . .

فقيه يتولى تحفيظ الطفل آى القرآن ، ويرسخ فى أعماق قلبه جذور الإيمان .

إنه طفل كبقية الأطفال ، وإن كان متميزاً بتوقد ذكاء ، ورهافة حس ، ولطف شعور . . .

ولكن لن يكون لهذا التميز أثر فى حياة الطفل ، وفى نظام عيشه الراتب المقرر الذى ينتظره فى مستأنف العمر .

أقصى الأمانى فى نفسه وفى نفس أهله وذويه أن يكون من متقدمى الطلاب فى الأزهر المعمور ، فيؤهله ذلك لأن يكون شيخاً نابهاً من أئمة الدين وفقهاء الفتوى وعلماء الأحكام ، يخب فى جبته الفضفاضة ، وتتوج رأسه عمامة كبيرة تكفل له أبهة ومهابة ، فإذا الناس يلثمون يده أفواجاً يستمدون منها طيب البركات .

ولكن حدث أمر ذو بال ، كارثة من كوارث الدهر ، وضربة من ضربات القدر التى يصيب بها الناس ، دون أن يدركوا لها كنها . . .

فقد الصبى بصره، فكان فى هذا الحدث فصل الخطاب فى الغيب المستور .

إنه حدث ليس بالجديد ولا بالغريب ، فلطالما أصاب كثيراً من الناس ، دون أن يغير من مجرى حياتهم أى تغيير .

وقد كان فى حسبان الأسرة أنه لم يغير من نفسية الصبى شيئاً ، ولن يكون له فى مجرى حياته أثر . . .

أكان العلم وقفاً على ذوى الأبصار ؟

أو ليس « الأزهر » يضم فى رحابه جملة من نوابغ المكفوفين ، لم يحل فقد البصر بينهم وبين ما يشتهون من جاه العلم ومنصب الدين ؟

إذن فليمض الصبى فى طريقه .

خطة فى الحياة مقررة ، ومنهج فى الدراسة مرسوم . . .

ولكن :

تقفون والفلك المحرك دائـــر وتقدرون فتضحك الأقدار

أقبل الصبي على حياته ، وانطلق قدماً يوطد العزم على أن يبلغ الغاية المقررة ، ويستوفى المنهج المرسوم . . .

هكذا قرر بعقله ومنطقه ، بيد أن قوة أخرى كانت تعمل فى الخفاء ، تعمل جاهدة مختزنة وقودها لميقات يوم معلوم ، تعمل دون أن يدرى الصبي من أمرها أى شيء . . .

كان عقله السافر يقول :

ليس لنا فى الحياة إلا الاستسلام. سلبنى القدر شيئاً عزيزاً، ولكن بماذا يستطيع مخلوق مسير أن يجابه القدر ، وأن يعاند مشيئته ؟

إلا أن عقله الباطن كان لا يأبه لهذه الفلسفة القائمة على أصول منطقية مستقرة ، فجعل يضطرب ويضطرم ، متنكراً لتلك الأقدار ، محاولاً أن يطلق جاحم ثورته للتغلب والانتصار . . .

ولم يكن لهذا العقل الباطن تدبير معين ، فقصارى جهده أن ينطلق ، وأن يرفع عنه الوقر الذى يثقله ، وإنه ليعد عدته ويتخذ أهبته ، ويرتصد للفرصة السانحة فيما يستقبل من الأيام . .

وعلى الرغم مما كان يلقاه الصبي من حدب وعطف ورعاية ، لم يكن بالفتى الضحوك ، طلق المحيا ، مرح النفس . . .

أكان يضيق بهذا الحدب والعطف والرعاية ، إذ يرى فى تلك المنح مثاراً لشجونه ، ويعدها علائم مواساة وإشفاق ؟ !

احتبس الصبى فى داره ، بل فى زاوية قصية من هذه الدار ، يقضى الساعات ساهم النفس ، مهموم الفؤاد . . . فلم تكن حياة الدار بما يعتلج فيها من ضجة وصخب تبعث فيه أى إقبال ، فاستقل فى مملكته الصغيرة التى صورها فى خياله ، وسوّرها لنفسه ، لتكون له معقلاً يكفل له صفاء التفكير والمناجاة . . .

ساعات وحدة طوال ، لا يعمرها إلا التأمل العميق . . . فكان ذلك وقوداً حامياً يذكى ذكاءه ، ويشق لخياله رحائب الأفق . فتوهجت قريحته ، وصفا ذهنه ، وتسامت مخيلته . . .

كان نضج عقله يسبق نضج جسمه ، فتجلت مخايل رجولته ، وهو فى طور اليفاعة ، فتىّ السن .

وآن للصبى أن يدخل « الأزهر » يجاور . . .

واستقبل بواكير الشباب ، فانقاد بادئ ذى بدء للنظم السائدة ، ولكن هذه النظم فى الدرس والتلقين لم ترق فتى كانت الثورة تتخلق بين جنبيه ، ويوشك شررها أن يتطاير .

إن سدنة « الأزهر » يومئذ كانوا يريدون الطالب برميلاً خالياً يملأونه بما تيسر من زاد متحجر متوارث ، حتى إذا امتلأ أحكموا سده ، ثم ألقوا البرميل يتدحرج على مدرجة الطريق ، قائلين له :

فلتذهب على بركة الله !

إلا أن طالبنا الثائر لم يكن يرضى لنفسه أن يكون ذلك البرميل المنشود . . .

فهو يرى فى بردته إنساناً ، وهبه الله عقلاً حياً يجادل به ويناقش ، لا يقبل قضية دون تمحيص واستكناه .

ومن ثم راح يسأل ، ويلح فى السؤال ، ويروع مسئوليه بما لا عهد لهم به من جرأة وتمرد على المألوف . . .

فضاق به السدنة المحافظون ، ولكنه ما برح يجأر بسؤاله ، حتى أيقظ من حوله طائفة من رفقائه . تجمعوا إليه ، واشتركوا معه ، يسألون ويتمردون .

وما لبث طالبنا الثائر أن أصبح زعيم المتسخطين الذين يريدهم « الأزهر » على أن يكونوا براميل تتدحرج على مدرجة الطريق .

وكان بديهاً أن تنتهى المعركة بخروج الطالب الثائر ، يلتمس الهواء فى أفق جديد !

بدأ الفتى حقبة من حياته ، حقبة حرية وانطلاق . . . بيد أنه أحس كأنما قد ألقى بنفسه فى بيداء شاسعة الأكناف ، تعصف فيها هوج الرياح ، لا يدرى ماذا يكون مصيره فى معركتها الدائرة ، فأذكى من عزيمته ، وألهب من همته ، وخاض الغمار فى حمية وحماس .

فى تلك الفترة كان هناك رجل يعمل فى ميدان آخر ، لإنشاء جيل

جديد ، وبث روح أخرى غير الروح السائدة فى ذلك العصر .

كان ذلك الرجل هو « لطفى السيد » ، وكان ميدانه صفحات « الجريدة » ودارها . . .

فصادف ذلك الميدان هوى فى فؤاد طالبنا الثائر ، وما هى إلا أن اندفع صوبه ، فكان فيه طليعة الفتيان !

وعرف طريقه إلى « الجامعة » الناشئة ، إلى ذلك المنهل الصافى يستكمل فيه ريه من علم وعرفان . .

وكانت حقًّا مرحلة انتقال جليلة الشأن فى حياة الفتى الثائر . .

لقد أقبل يتلقى علوم العصر ومعارفه ، على مناهج مستحدثة ، وأساليب لا عهد بها لمعهده القديم . . فتجلت نشطته ، وتفتقت موهبته ، وأحس بالظمأ المتجدد إلى طلب المزيد مما بين يديه من بحث ودرس .

فضاقت « الجامعة » الناشئة عن تطلعه وطموحه . . .

ولم تعد « مصر » تغنيه عما يريد . . . .

فإلى كعبة العلم فى « فرنسا » .

إلى « جامعة باريس » !

هناك آفاق فساح من حرية التفكير ، وكنوز لا تنفد من المعارف والعلوم ، وأمواج دفاقة من البحث والتحقيق والتنوير .

فانبرى الشاب الطموح يعب ويتزود .

وكان ذلك مرحلة انتقال أخرى فى التوجيه ، وخطوة واسعة فى سبيل التكمل .

وإلى هذه الحقبة ، يمكن القول بأن الحظ لم يخلف ذلك الشاب الموهوب ، على الرغم مما حاق به من ملابسات

ولكن هذا الحظ يواتيه متألقاً سخيًّا ، إذ يهيئ له اليوم صاحبة كريمة ليست فرنسية بمولدها ونشأتها وحسب ، ولكنها فرنسية مثالية بثقافتها وفكرها ، مثالية بإدراكها لمهمة الشريك فى حياة طلاعة نزاعة إلى بطولة التجديد والبناء !

ومن ثم كملت للشاب أدواته ، واستقرت به الحال ، وتوضح له سبيله فى مستقبل العيش .

فآب إلى وطنه ، يزاول العمل ، ويواصل الجهاد . . .

واضطلع بمهمته التى ادخر لها نشاطه ، وجند مواهبه ، مهمة النداء بثورة فى الميدان الأدبى ، والتبشير بمناهج حديثة فى البحث والدرس ، والعمل على رسم أسس جديدة يشاد عليها « مستقبل الثقافة فى مصر » .

أستاذ فى « الجامعة » يذكى فى نفوس الطلاب شعلة التفكير ، وهو حيناً يلقى ضوءاً على جوانب من الأدب العربى ، وحيناً يشرع نهجاً للنقد الأدبى ، وحيناً يدنى إلى قراء العربية زاداً من ثقافة « يونان » ، وحيناً يجلى لهم طرائف من نماذج الأدب الفرنسى ، وحيناً يسرد قصته فى « أيامه » فإذا به يطرف العربية بفن أخاذ من القصص الرفيع لا يجاريه فى روعته قلم . وهو إلى ذلك وغير ذلك كله روح سارية وثابة نفاذة الأثر فى البيئة العلمية والأدبية تدفع الأساتذة والطلاب ، وتوجه القادة ومن بيدهم زمام

الأمور إلى دعم الثقافة وتوسيع آفاقها وإصلاح خططها ، لتساير ركب الأمم فى طريق التحضر .

« طه حسين » مزاج قوى بين حضارتين متغايرتين : حضارة الشرق وحضارة الغرب ، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين : « الأزهر » و « جامعة باريس » . . .

وإن أصوله ما برحت راسخة فى حضارة « الأزهر » تستخلص منها عناصر غذاء لا غناء عنها ، ولكن فروعه تسامقت فينانة فى حضارة الغرب وثقافته ، تتنسم منها الهواء وتستمد النور .

وربما تبدو أول وهلة غرابة الجمع بين معهدين وحضارتين اختلفا كل اختلاف ، ولكن المتمعن المدقق يرى أن ليس الجمع بينهما بالمتعذر العسير ، فليسا هما على طرفى نقيض . . .

إنهما يرجعان إلى نبع واحد ، هو نبع المعرفة الإنسانية فى أصولها الأولى ، والخلاف بينهما هو أن كلاً منهما يتميز بما ليس فى الآخر . . .

هما عنصران أساسيان لشخصية الشرقى الذى يريد أن يصطحب أمجاده التليدة وميراثه العظيم ، دون أن يعوقه ذلك عن مسايرة الركب الإنسانى فى طريقه إلى الأمام .

وإذا كان « طه حسين » قد جمع فى شخصه بين « الشيخ » و « الدكتور » فقصارى ما فعل أنه لاءم بين نشاطين من ضروب النشاط الذهنى للإنسان ، وكان بهذه الملاءمة نموذجاً مثالياً للأديب الشرقى المعاصر .

وحسبنا — لكى تتجلى مزية هذه الملاءمة — أن نتمثل « طه « أزهرياً » استأثرت به أزهريته ، أو جامعياً لم يكن له من الثقافة العربية فى غمارها الملتطم نصيب.. فإن الأزهرى أو الجامعى وحده قد يكون له أثره وخطره ، ولكنه لن يكون تلك الشخصية المثالية المكتملة التى نسميها : « طه حسين » ..

ولعل واسطة العقد فى شخصية أديبنا ، هى أسلوبه . . .

ذلك الأسلوب الذى تفرد به صاحبه ، وعز على من استهواهم أن يحاكوه . . .

ولست الآن بصدد العرض لمزايا هذا الأسلوب وخصائصه ، فحسبى أن أشير إلى أنه أسلوب طريف ، راع الناس بجدته ومنحاه فى التعبير والتأثير ، ولا أدل على ذلك من قيام الجدل حوله بين الأشياع والنقاد . . .

وما كان لأسلوب جديد مبتكر ألا يقوم حوله جدل ونقاش !

ولكن الذى لا جدال فيه أننا حين نشيد باللغة العربية ، وقد زهت فى هذا العصر ، يطالعنا فيما يطالعنا على الفور :

أسلوب « طه حسين » !

فلا مرية أن البيان العربى قد بلغ الآن من الازدهار مبلغاً عظيماً لا يقل عما بلغه فى أزهى العصور السوالف ، ولا مرية كذلك فى أن نعد أسلوب « طه حسين » مظهراً رائعاً من مظاهر ذلك الازدهار ..

عبد العزيز فهمى

كان شأنى مع « عبد العزيز فهمى باشا » هو شأن كل امرئ مع الكبراء الذين يملأون الدنيا، ويشغلون الناس ، هؤلاء الذين تتناثر أنباء بطولتهم على الأسماع ، وتتعطر بأحاديثهم الأندية والمجالس ، وتتجلى صورهم فى الصحف مختلفة الأوضاع ، فإن تاح لك أن تراهم، لمحتهم عبراً فى سيارة ، أو خطفاً فى مجتمع . . . وإن صورتهم التى تتمثل فى الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف ذوات الهالات من نسج الخيال !

ظلت علاقتى « بعبد العزيز فهمى » لا تتجاوز هذا المدى . أعلم أنه أحد ثلاثة كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة المغتصب ، وتتناهى إلىّ تلك الأحاديث النادرة التى تصف مواقفه الرائعة الجبارة فى السياسة والتشريع والقضاء . . .

وأول مرة اجتليت فيها صورة الرجل عن كثب ، كانت بدار المجمع اللغوى ، فى زيارة لتلك الدار . . .

لمحته على متكأ يجلس جلسة تتوضح فيها الوداعة البالغة ، متراخى الأوصال ، قليلاً على المتكإ شخصه الضئيل . . .

فاسترعى نظرى منه طول إطراقه ، وقد أزاح طربوشه إلى الوراء ،

كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق . . .

فناجيت نفسى :

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية للكتابة العربية . . ذلك المشروع الذى انبعث من المجمع قذيفة اهتاج لها رجال الفكر فى أرجاء الأمة العربية ، وكانت مثار يقظة ونشطة وانبعاث ؟

ووقعت فى يدى نسخة من ذلك الكتاب الذى ترجمه « عبد العزيز فهمى » منذ عهد قليل ، ذلك هو » مدونة جوستنيان « فى الفقه الرومانى ... مجلد ضخم زاخر بخلاصة التشريع فى ذلك الزمن البعيد ، هو آية إعجاز فى دقة التعبير وإحكام الأداء ، تتجلى فى ديباجة عربية بليغة عليها رونق ورواء .

ونمى إلىّ أنه احتبس فى داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره فى الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ مما أراد فى الشهر الذى أكمل به عامه الخامس والسبعين ، فكأنه يتوج تلك السن المباركة بذلك الجهد العلمى الرفيع !

كنت أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فترف حوالى صورة ذلك الرجل الذى لمحته منكمشاً على المتكأ فى دار المجمع ، غارقاً فى تأملاته ، أشبه ما يكون بفيلسوف هندى من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لا يطيقها إلا الأقلون الأندرون . . .

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران : لسانه ومعقوله والجسم وهم مصور

شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى فى الريف بعض يوم ، فجزت فى طريقى « بكفر المصيلحة » — بلدة « عبد العزيز فهمى » — فألفيتنى أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة محدقاً فى بيت « عبد العزيز فهمى » الشامخ ، ذلك البيت العتيق الذى هو بقية من دور الأسر العريقة فى الريف ، تلك الدور التى كانت مثابة الآباء والأبناء والحفداء ، كل دار منها كأنما هى وطن يحوى أمة !

ولبثت أتسمع أحاديث الناس ، فإذا هى ألسنة تمجد مآثر الرجل ، وتشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهليها المتصافين . . .

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزرّاع من أهل منطقته ، يأخذ بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمير والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أياد كريمة لتمدين البلدة وتجديدها ، بتعبيد طرقها وتوشيتها بالمناره والمؤسسات ، حتى لقد أضحت « هليوبوليس الريف » ، وأصبح هو « بارون امبان كفر المصيلحة » !

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل فى سبيل نشر التعليم بين أبناء بلده ، فإن الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التى نفخ فيها الرجل من روحه ، فانبرت ترسل النور . . .

فى هذه القرية المنزوية بين حواضر الأقاليم مدرسة ابتدائية لتعليم

البنات ، فلابدع أن يقص علينا متحدث رابع أطروفة فكهة ، تلك هى أن الفلاحات يخرجن فى الأصائل إلى النيل ، حاملات جرارهن يستقين ، فإذا ما صدرن عن الماء آيبات إلى الدور ، وقفن فى منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع الصحف ، حتى إذا أهل عليهن برزمته ، تخاطفن منه الصحف فى حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطرن ، وقد أملن على رؤسهن الجرار ، ومضين يروين ظمأهن من أنباء السياسة وشئون البلاد ! . . .

أذكت هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى « عبد العزيز فهمى » جلسة تحية وتعارف ، فلما قفلت إلى « القاهرة » لم يهدأ لى بال حتى رغبت إلى صديق فى أن يضرب لى معه موعد لقاء . . .

وفى منتصف الثامنة من أمسية يوم كنت أنا وصديقى أمام دار الزعيم ، تلك الدار الصغيرة التى ترفعت عن أن تنافس فى ترف القصور . . .

وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة ، ولبثت واقفاً أجيل الطرف حولى ، وقد شملتنى رهبة ومهابة ، على الرغم من سذاجة ما يحيط بى من مظاهر . . . طابع شرقى محافظ ، مشبع بجو عائلى تشيع فيه الطمأنينة والهدوء .

فرحت أهجس :

هنا فى هذا البهو تلاقت شخصيات عظيمة ، واختمرت أفكار حاسمة ، وإن حيطانه الصوامت لتختزن أصداء ذلك اللفيف من الرعيل الأول الذى كانت خطاه رسماً لأقدار « مصر » الحديثة فى نهوضها السياسى

والاجتماعى والعلمى . . . .

هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس ، وإنى لأكاد أجثو من روعة التذكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم يذهب مع الريح!

لم تكد تمضى بضع لحظات حتى ارتقينا الدرج إلى عش الزعيم ، فأقبلنا عليه فى حجيرة خشبية نصفها الأعلى نوافذ تنسدل عليها الأستار ... وكان الزعيم جالساً فى ركن خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يده منضدة بسطت عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه فى لبسة المتفضل : منامة صيفية وطاقية بيضاء تترامى على مؤخر رأسه ، وكان لقاؤه لقاء السمح الأريحى فى حفاوة شرقية أصيلة تنشرح لها الصدور . . .

جلست إليه دقائق مستغرقاً فى صمتى ، شاخصاً ببصرى ، لا أريم وجه ذلك الرجل الذى تتضوأ شيخوخته أنيسة محببة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تتدفق من بين شفتيه فى عذوبة وصفاء . . .

وراعنى أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس ، حتى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجماع واستجمام ، فخشيت أن أكون قد لقيته فى وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديقى النظر أسائله ، فطمأننى بأن زعيمنا قد ألف هذه المجاهدة ، فليس عليه من ضير . . .

وأسرعت إلينا أقداح القهوة . وكشفت علبة اللفائف ، وما هى إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض ، وجرى الحديث طلقاً

زاخراً لا لغو فيه ولا فضول . فلبثت أستمسك بالإصغاء ، مؤثراً ذلك السكوت الذهبي الذى يتيح لى أن أودع سمعى غوالى الكلام . . .

حديث « عبد العزيز فهمى » صورة واضحة من شخصيته :

خلابة فى المنطق ، ونصاعة فى العرض ، وصدق فى اللهجة . . .

إن الكلمات لتندفع على شفتيه مشبوبة الحيوية تتوهج ، وإنك إذ تستمع إليه لتستشعر خفوق قلبه وثورة دمه ، فيتجلى لك مظهر رائع من حرارة الإيمان ونقاء الطوية وصراحة الرأى . . .

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض فيه من الحديث لكى يستبين لك جماع الخصائص النادرة التى عرف بها فى حياته العامرة . . .

للرجل افتنان فى الأحاديث يتيح له أن يجوز بك آفاقاً رحاباً فى عالم الفكر ، وله عون أى عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة ، وذكاء عبقرى لا ترده حدود ، ونزعة إلى الاطلاع تَتَعُبّ ولا ترْوَى .

وإنه ليحاورك ويطارحك القول دون أن يفرض عليك وجهة نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه والإقناع به ، قوى العارضة ، طيع البديهة ، مسكت الجواب !

كان « الباشا » بين الفينة والفينة يستريح ، وهو يدور بعينيه حوله ، كأنما يتامس من الهواء عوناً على تجديد الأنفاس ، ثم إذا هو يستأنف الحديث ، أندى صوتاً وأقدر على مواصلة الكلام . . .

ودخلت علينا الحجرة سيدة ما إن لمحت سمتها حتى عرفت أنها قهرمانة البيت ، تفصح ملامحها عن إغريقية واضحة . . .دخلت تحمل حفيد الزعيم ، يزود جده بتحية المساء ، فما إن رأى الطفل جده حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجد يبادله التحية والعناق ، وكانت التحيتان كلتاهما تتشابهان وتنسجمان فى الوداعة والسذاجة واللطف ، فلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر ، لا يدرى أيتهما تحية الجد ، وأيتهما تحية الحفيد؟!

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هى إلا أن رجعت تحمل قدحاً فى قرارته جرعات الدواء ، فارتشفها الزعيم فى طوع واستسلام .

وكنا بين حين وحين نسمع « الباشا » ينادى تلك السيدة ، راغباً إليها فى إحضار كتاب ، أو علبة لفائف ، أو كوب ماء ، أو غير ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء ، رزينة السمت ، موفورة النشاط ، تزاول عملها فى جد وإقبال . . . تغدو وتروح فى خفة ابنة العشرين ، وإن كانت بادنة تقدمت بها السنون . . .

إذا دخلت الحجرة دبت بخطاً متزنة عليها طابع السيادة والتأمر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وكل إليها أن تتعهد شأن الزعيم وتسهر على راحته . لا ينازعها فى مهمتها منازع !

وقد نرى « الباشا » منبرياً يتحدث عن قصص القرآن وما له فى شأنه من رأى ، فإذا برغبة تهجس فى نفسه ، فلايكاد يرفع الصوت منادياً تلك القهرمانة ، حتى نبصر بها أمامنا ، كأنما انشقت الأرض عنها . . .

إنها لتحس رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطلب ، فى أسرع من رجع الطرف وخطف البرق . . .

حان وقت العشاء ، فجىء لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة زودت بمعدات الأكل وصحاف الطعام ، فأذكرتنى هذه الطريقة أسلوب الإطعام الأمريكى فى الطائرات والمطاعم المسماة فى « أمريكا » : « كافيتريا » . . .

وهالنى ما حفلت به صينيتى وصينية صديقى من أطعمة شهية مختلفة الألوان ، فرفعت عينى إلى صينية « الباشا » فإذا أوضح ما فيها قارورة ملئت حساء مجمداً يؤخذ منه القدر المطلوب ليذاب فى قليل من الماء السخين ، وبجانب القارورة صحفة عليها شرائح رقيقة من شواء ، وخلفها صحفة فيها قطع من الطماطم ، وغير بعيد صحفة ثالثة فيها شقة ضئيلة من فاكهة الشمام . . .

والتفت إلى الصديق أسائله فيما أرى ، فأخبرنى بأنه لا يعرف أن « الباشا » زاد فى طعامه على هذا النحو ، منذ وصلت بينهما أسباب اللقاء !

وكانت القهرمانة تشرف على الخدم ، تومئ إليهم فيأتمرون ، وتشير فينتهون . وما لبثت أن تولتنا بالرعاية والتعهد ، تلح علينا فى أن نأكل من هذه الصحفة أو من تلك ، وكأنها بذلك تسلكنا فى عداد أطفالها المدللين ، لزام أن نملأ البطون لنكبر ونترعرع ونكسب رضاها الثمين !

ويا طالما وقفت تجاه « الباشا » تأبى عليه أن يتكلم ، وتحثه على أن

يستوفى حظه من الطعام غير منقوص ، فلا يملك زعيمنا العظيم إلا أن يرفع إليها بصره فى صمت هادئ ، وعلى محياه طابع الحمَل الوديع !

وفرغنا من الطعام ، وحمات الصوانى ، فعادت منضدة « الباشا » إلى وضعها الأول ، كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب . . .

ولاحظت أن « الباشا » يعنى بهذه الكومات ، وكثيراً ما مد إليها يده يخشى أن يند منها شىء !

فنظرت إلى الصديق ، فإذا « الباشا » يفطن إلى ما دار فى خاطرى من سؤال ، فأخذ يحدثنى عن هذه المنضدة يزهدنى فيما حوت أكبر تزهيد ، ويهون من شأنها أبلغ تهوين ، ولكنه فى أثناء حديثه أشار إلى أنه ينهى أحداً أن يمس منها ورقة أو يكشف عن مكنون ، مهما يكن من أمره ، وأنه يبسط عليها الصحف واحدة تلو الأخرى . . .

فأدركت أن « الباشا » يتخذ الصحف دريئة تستخفى تحتها ذخائر وكنوز ، كما يتخذ الجندى أغصان الأشجار وألوان الرمال فى مناطق القتال ، تعمية لما يرغب فى ستره عن العيون . . .

سطح هذه المنضدة طبقات ، فى كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد تتشابك بها ضروب من وقائع تاريخية وذكريات عزيزة وتعليقات فى علم وأدب وسياسة وتشريع ، وكأن كل طبقة من هذه الطبقات حقبة من التاريخ وكرة من الزمن عامرة بالكوائن والأحداث !

ذلك هو سر المنضدة ، نكشف عنه الستار ، وأمرنا إلى الله فيما يكون

من عتاب وحساب . . .

عاد « الباشا » إلى حديثه الطلى ، حتى مر هزيع من الليل ، لم نكد نصدق أنه مر ، ولولا أنى آثرت راحة زعيمنا العظيم لما صدرت عن ذلك المجلس الذى أصبت فيه رفيعاً من إمتاع السمع والعقل والروح . . .

وقفت خاشعاً أمام مضيفنا الكريم ، أخذُ بيده أحييه ، أحيي قوة شعت أضواؤها فكان منها دستور ، وكان منها تشريع ، وكان منها توجيه وطنى آتى « مصر » أبرك الثمرات !

فى تلك اللحظة انتظمتنى تلك النشوة العلوية التى يستشعرها المرء فى مواقف الإكبار والتمجيد . . .

وخرجت راضياً عن نفسى كل الرضا ، بما أكسبتنيه هذه الزورة من التسامى فترة فى أفق مثالى خالص من شوائب الأغراض التافهة وشواغل الحياة الرخيصة مما يزحم دنيا الناس !

غادرت تلك الدار ، وقد طوفت برأسى خواطر :

ذلكم زعيمنا العظيم ، يركن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة ، قانعاً فيها بتلك الحجيرة الزجاجية ذات الأستار ، يقضى شيخوخته النبيلة فى حشد من ذكرياته المعطرة بالمآثر والأمجاد !

لم تمتد عين « عبد العزيز فهمى » إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها البذخ والترف ، بل لقد عف قادراً عن ذلك الضرب من كسب الحياة ، وآثر لكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنجوة عن متاع خداع مصيره للزوال !

أعجب ما يروعك من خصائص «عبد العزيز فهمى» ظمؤه الدائب إلى العمل ، فإنه ليقضى أطول يومه فى تلك الحجيرة الحبيبة إليه ، عاكفاً على المطالعة والمراجعة ، كأنه موكل بالهوامش البيض فى الكتب ينمنمها بما يجرى به قلمه من ملاحظة وتعليق . . . وإن العمل ليمتد به حتى يطغى على ليله ، وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار وما برحت أقداح القهوة توافيه ، وعلب اللفائف تغدو ملأى وتروح خالية ، والخدم يتناوبون خدمة ذلك المتهجد اليقظان !

حياة « عبد العزيز فهمى » سلسلة من المغامرات فى سبيل العمل ، فهو لا يحل مثابة ولا يشترك فى شىء إلا كان العمل رائده فيه ، فإذا هو يثير حوله فورة النشاط الدءوب . . .

هيهات أن يكون سلبيًّا فى موقفه ، مكتفياً بملء كرسيه ، فهو على يقين أنه صاحب رسالة لا يستأنى فى أدائها حيثما حل ، مقتحماً فى سبيلها أشتات العوائق والأشراك .

يجلس عضواً فى لجنة الدستور ، فيكون أبا للدستور . . .

ويهبط الريف ، فيثير فيه ثائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .

ويتسنم ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحاً من القواعد الجديدة يتمثل فيه استقلال الرأى ، وعبقرية الذهن ، ويصبح شغلا شاغلا لمعاهد الفقه والتشريع . . .

ويدعى إلى المجمع اللغوى ، فإذا هو السباق إلى ارتياد آفاق جديدة

نحدوه إليها حرارة العقيدة وألمعية التفكير . . .

« عبد العزيز فهمى » فى شيخوخته العالية فتىّ العقل ، طلاع دائماً إلى التجديد، وهو إلى ذلك قوى الشكيمة ، غلاب الحجة، لا يتهيب مواقف الاقتحام . . .

لا خلاف على أن « عبد العزيز فهمى » زعيم ، فإن زعامته ملء القلوب والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز خاص . . .

وكان محالا أن يكون الرجل زعيماً من ذلك الطراز المعروف الذى تتولى فيه الزعامة قيادة الجماهير ، وتلتف حولها أشتات الطبقات . وتحرص على اجتذاب الناس بشتى الذرائع والأسباب ، وتؤثر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ بنواصيهم إلى ما تهدف إليه من أغراض وغايات . . .

ليس « عبد العزيز فهمى » بذلك الزعيم الشعبى ، فإن الزعماء الشعبيين يفتقرون إلى مزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة الحيلة ، ومما لأة الأحداث ، وتحسس الأهواء . والتردد بين اللين والعنف ، طوعاً لطوارئ الجزر والمد . . . وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفاً فى مثاليته ، صلباً فى عقيدته ، منفرداً برأيه ، متحنثاً فيما يتخذ من وسائل لبلوغ الأهداف .

و « عبد العزيز فهمى » مزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحنث ، تلك الخصائص التى تجعله زعيماً من ذلك الطراز الخاص الذى يورى الزناد، وينفخ فى الروح ، ويبعث اليقظة ، ويختط الطريق ، ثم يدع لغيره

من الزعماء أن يخوضوا وسائل التنفيذ ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجاريب .

هو صاحب « فكرة » يطرحها على أعين الناس ، وليس عليه بعد ذلك أن ينافس فى تحقيقها ، وأن يحتمل ما يقتضيه ذلك التحقيق من أعباء دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالى المتحنثون !

« لعبد العزيز فهمى » فى أذهان عارفيه صورة تملأ الأفئدة رهبة وخشية ، بما علموه من حدة نفسه ، وعنف مواقفه ، ولكن هذا الرجل الجبار فى المواطن التى يشايع فيها حقاً أو يدفع ظلامة ، ينطوى على « إنسانية » تتوهج فيها رقة العاطفة ، ورهافة الشعور . . .

ولعل أوضح ظاهرة تتمثل فيها « إنسانيته » العاطفية ، أنه فى بيته لا يأبه له اثنان :

الطفل .

والقط .

فحفيده إذا دخل عليه أخذ يعابثه فى جسارة واجتراء ، وراح يختطف ما يحلو له مما بين يديه ، وهو على ثقة أن جده الشفيق لن تبلغ به الثورة إن ثار حداً يُخاف !

وأما القط ، فإنه يقارب مجلس الزعيم ، فإذا زجره لم يكترث ولم يتحلحل وربما سمع القط نأمة بعيدة من أحد من أهل الدار ، فلا يلبث أن يلوذ بالفرار . . . وما أقر القط فى مكانه من مجلس الزعيم إلا إحساسه بأنه فى رحاب طمأنينة وأمن ، وأن الزعيم وإن زجره بلسانه فلن يصيبه منه أذى !

أحمد أمين

أكنت سائراً ضحوة يوم فى شارع « قصر العينى » فصادفت امرءاً يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هين المشية ، خاشع البصر ، يتلفت فى مراقبة وحذار ، كأنما يستخفى عن أعين الناس ؟

لو تاح لك أن تصادف امرءاً هذه صفته ، لجرى فى خاطرك على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين ننعتهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكف عن الضرب فى غمرات الحياة ، ولحدثتك نفسك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهليها غريب .

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة من التوسم له ، والتعرف به ، فإذا أنت متأثر خطاه ، تريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سمت غير مألوف .

وما هى إلا أن ترى الرجل قد عرج على دار «المجمع اللغوى» وأخذ يتسامى على سلمه ، متلقياً ممن حوله تحايا الاستقبال ، وهو يردها بأحسن منها فى وداعة محببة تجلوها ابتسامة خفرة ، وإنك لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغير الكبراء بدرجة سواء .

ويستهويك ما تشهد من أمر الرجل ، فتتابعه فى مسيره ، حتى يسلمك

إلى قاعة مديدة تغص بمنضدة مبسوطة ، قد ترصصت عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بجماجم أثرية ضخام !

وثمة ترى صاحبك قدأوغل فى القاعة ،حتى إذا بلغ منها مكاناً قصياً اتخذ مجلسه فىسكينة وركون ، كأنه يخشى أن يشعر بمقدمه أحد . وما أسرع أن يمد يمينه إلى سفر من هذه الأسفار ، فيقلب من صفحاته لحظات ، ثم يمسك عنه ، وقد تكمش فى مجلسه وأطرق ، حتى لتقول أغفى !

وتعمر جوانب القاعة بالقصاد ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب الرفاق أطراف النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأى حامية الوطيس ، وصاحبك على حاله ، لا تنبس له شفة ، ولا يطرف له جفن ، فتحسب أنه ساه عما حوله ، لا يجرى شىء منه بباله ، فتتركه وشأنه ، ويشغلك التحاور والجدال . وفيما أنت كذلك إذ يداعب سمعك صوت يختلج مترفقاً يحاول أن يجد له طريقاً فى ملتطم ذلك الزحام ،فإذا تبينت القائل عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذن له وأنت عليه مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميم من البحث ، وأنه يجمع لك فى فقرات ما تشعث من أطراف الرأى ، ولا يعتم أن ينتهى بك إلى حكم تأنس إليه النفوس ، وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التى تصطرع فيها عقول ، وتسطع بدائه ، غافلا عن استشارة تلك الساعة العتيقة التى تبرز

على حائط القاعة ، وما أنت لو استثمرتها بمستفيد ضبطاً لوقتك ، فإنما هي ساعة مجمعية ، كأنما أعليت فى مكانها لتستهزئ بدورة الفلك ، وتسخر من حساب الزمن !

واتجدن المناقشات قد تناوحت يمنة ويسرة ، ولربما اشتد اشتباكها واحتد ، وأنت معقود العين بصاحبك ، تقفو مشاركاته فيما يتراءى من وجهات النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئاً بعد شىء ، وكأنك تجتلى كتاباً شائقاً جد شائق ، كلما قلبت من صفحاته ازددت به من تعلق ، وطمحت منه إلى جديد !

إنه فى شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سمته ، فهو أبداً هادئ القسمات ، رفيق الإشارة ، أريحى الروح ، يتميز بذلك الصوت المختلج الحيى . . . ولكنك تستبين من وراء ذلك كله إيماناً منه بفكرته ، وثباتاً فى تعزيزها ، ولباقة فى الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذى رأيته أول ما رأيته متكمشاً مستوحشاً ، فحسبته ممن لا حظ لهم فى معترك الحياة — قد تفتق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنهج لها طريقاً لا عوج فيه .

وتعجب لصاحبك ، وقد استحر نقاشه ، وجعل يطارح رفاقه مصطلحات العلم فى صلابتها وخشونتها ، إذ تراه وقد دس بين هذه الصخور والجنادل — فى الفينة بعد الفينة — ملحة فكهة ، أو مزحة طريفة ، لا تلبث أن تشيع فى جو المجلس نسمة من الطرب والمراح . فتعلم أن

صاحبك على وثاقة عامه ، وأصالة وقاره ، يجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة وظرف وإيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن سيده» ، أو القاعدة المعقدة « لسيبويه » نكتة ضاحكة ، أو دعابة لطيفة ، تحيل تلك الجنادل والصخور رياضاً حالية بالنضرة والازدهار.

ولا يكاد ينتهى بك المجلس الأول فى صحبة الرجل ، حتى يغريك ما استبان لك من أمره بأن تطلب المزيد .

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » فى كلمة ، قلنا : إنه « بَنَّاء » !

ولقد ملكت هواه نزعة البناء والتشييد ، وأولع بها أيما ولوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطوراً يشرف ويرعى ، وحيناً يحض ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البناء » فى نزعته ، أنه اجتماعى عصرى ، وأنه واقعى عملى ، إذا علنت له فكرة رسمها فى ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدر لها كل ما عساه يكون من أقدار ، و لا يكاد يمد يده ليضع الحجر الأساسى لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلو دعائمه ، وإذا هو حصن للقرائح والعقول .

وعبقرية هذا « البناء » العظيم تتمثل فى أنه يجعل لنزعته طابعاً من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه

عتاداً من كنوز الشرق وأمجاده ، ولكنه يقيم على هذا الأساس طرازاً تتوافر له كل مزايا التحضر العصرى والعمران الحديث .

وهذا « البناء » العظيم يرمى دائماً من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغى بها تجديد العقلية العربية ، وإمدادها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الحثيث .

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يمل أن يدور . وكأن هذا المحور مغزل يستمد منه الخيوط لينسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلمه .

اقرأ كتابه « فجر الإسلام » وصنويه : « الضحى » و « الظهر » تجده يؤرخ لعقلية المسلمين فى مواضى الحقب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك منهاج الفكر العربى فى تطوره وسموه ، ويميط الغبار عن معالمه ، ويريك الضوء من مصابيحه !

ولم يكن عجباً أن يشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد ، وإن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يعنى أكبر ما يعنى فى تاريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفى نشر رسالة التجديد !

وإليك كتابه « فيض الخاطر » . لكأنه شريط « سينمائى » تتوالى فيه

الصور والمشاهد، شريط تنطبع عليه استجابة ذلك « البناء » الداعى إلى الإصلاح لكل ما يلابسه فى الحياة والمجتمع . وإنها لصور شائقة، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قبسة من الفن فى العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك — فى شخصية هذا العالم الدارس — صبغة الأديب الفنان .

وأنت لو تصفحت مختلف الجوانب من شخصية « أحمد أمين » لطالعت عينك صورة قاض تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى ما فيها من خلال الدقة والوزن والنظام ، وأكرم ما فيها من خصال النزاهة والعدالة ويقظة الضمير .

إنه قاض فى خاصة شأنه مع نفسه ، قاض فى حديث مجلسه ، قاض فى الجامعة أستاذاً ، وعلى مكتبه رئيس عمل ، قاض فى معاملاته مع الناس بين قريب وبعيد ، قاض فيما يجرى به قامه من مباحث ودراسات وخواطر . . .

وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية فى بواكيرها ، حين شب شبابه ، فأرادت له أن يكون أحد قضاة الشرع ، يفصل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . . ولكنه لم يمكث فى منصب القضاء طويلا ، فترك ذلك الميدان المحدود ، ليكون قاضياً طليقاً لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختلاف مناصبه ، وتنوع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء، وتهيمن على فكره ما وسعها أن تهيمن .

وهذه النزعة القضائية قد وسمت حياة الرجل فى مناحيها العقلية

والاجتماعية بسمة الاعتدال . . . فهو معتدل أبداً فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبداً فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمح فى القسوة ، ولا يتراخى فى اللين . يحب حين يحب هوناً ما ، ويبغض إذا أبغض هونا ما . أنأى ما يكون عن التعصب والتحزب . آنف ما يكون للسرف والتطرف ، أميل ما يكون إلى الموادعة والحسنى !

والعجب العاجب فى شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفتها كل دواعى التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليد صارمة ، وتعاليم جامدة . . . ولكن فكره توهج والتمع وسط ذلك كله ، كما يتلألأ الجوهر النقى ، وخرج يلتمس الطلاقة فى الأفق الرحيب . . . فإذا التمسنا الآن حرية الفكر بين القادة الأعلام ، ألفيناه منار الطريق .

العقاد والمازنى

هما اثنان :

أحدهما سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ، تلتمع عيناه حزماً واعتزاماً ، ويقتلع خطاه فى مسيره اقتلاعا . وبجانبه شخص متطامن ، ضئيل الظل ، قريب بعضه من بعض ، تملأ منه عينيك فى لحظة ، ينقل خطاه كما يتواثب القطا ، ويقلب فيما حوله نظرة يقظى تسبر الغور وتخترق الحجب .

فإذا راعك مرآهما جنباً إلى جنب فى الطريق ، فأقسم غير حانث أنك ترى « العقاد » و « المازنى » . . . ترى ذينك الصاحبين اللذين ترافقا فى دنيا الأدب وعالم الثقافة منذ عهد بعيد .

ولقد ألف الناس أن يتمثلوهما معاً ، حتى إنهم إذا رأوا أحدهما وحده ، أعدوا أنفسهم لاستقبال صاحبه دون قصد . . .

وذلك ما كان من أمرى معهما ، حين أزمعت أن أجرى القلم فى الحديث عن واحد منهما ، فقد وثبت إلى ذهنى على الفور صورة الآخر لا تريمه ، ولم تكن لى منجاة عن جمعهما فى مقال .

وليس ذلك عجبا فى شأن « العقاد » و « المازنى » ، فقد جات

صحائف التاريخ مشاهد من الأعلام مثنى مثنى . . .

وربما أثار الدهشة أن ثمة فوارق بين كل اثنين جمع بينهما التاريخ ، وأن هذه الفوارق كانت خليقة أن تباعد بينهما كل المباعدة . ولكن الحق أن تلك الفوارق هى علة الاتصال ، وباعثة الاقتران ، إذ هى التى يتكامل بها الرفيقان ، فيؤلفان بهذا التكامل صورة تامة تعبر عن جانب كبير من حياة العصر الذى يعيشان فيه .

و « العقاد » و « المازنى » فى تزاملهما يتقاربان جد التقارب ، كما يتباعدان جد التباعد ، حتى لقد ينتهج أحدهما مسلكاً عكس ما ينتهج صاحبه ، بيد أنهما على الرغم من كل ذلك صنوان أو توأمان لا تنقطع بينهما الأسباب .

تلازما عصر الشباب ، حتى أدى بهما المطاف إلى أوج الرجولة ، وبلغا عصر المشيب ، فلبث كلاهما على حاله ، لم يلحقه تبديل ولا تحويل ... « العقاد » فى شبابه شيخ نشيط ، وفى كهولته شاب وقور . أما « المازنى » فهو فى شبابه وكهولته معاً ذلك اللعوب الشغوب ، صاحب النكات والمشاكسات ، الساخر حتى من نفسه فى غير مبالاة . . .

فى حياتهما أوجه شبه عجائب :

مدرسان يزاولان التعليم حيناً من الدهر .

قارئان يمتحان من نبع واحد ، سواء فى الأدب العربى ، أو فى الأدب الإنجليزى .

شاعران يخطان للشعر نهجاً طريفاً غير مألوف.
ناقدان يثوران على القديم ، ويدعوان إلى الجديد .
كاتبان يشرعان أوضاع « المقالة » العصرية فى أدبنا الحديث .
صحفيان ينافحان بالقلم عن مذاهب السياسة ومبادئ الأحزاب .
ورأس المشابهة بينهما هو نزعة التجديد ، فهما أبرز دعاة العصر إلى بعث الروح الأدبى على نحو يساير النهضات الأدبية فى العالم المتحضر ، وإليهما يرجع كبير من الفضل فى أداء رسالة الفكر الغربى إلى الشرق فى هذه الحقبة .

ولم تكن دعوتهما إلى التجديد هدماً لمأثور الأدب وقديم الثقافة ، بل كانت إمداداً للماضى بالحاضر ، ووصلا للقديم بالجديد ، وتزويداً للحياة الفكرية بدم قوى نقى . . . وذلك لأنهما كانا فى رحيب دراساتهما وواسع تحصيلهما ، مثلاً طيباً للتمكن من أدب العربية ، والتبحر فى ثقافة الشرق ، فقدرا هذا الأدب حق قدره ، وعرفا لتلك الثقافة حقها من التقويم .

لست أغالى فى القول بأن المرض الذى ألم « بالعقاد » فى مفتتح شبابه كان له الأثر الأعظم فى تكوين حياته وإبراز طابعه ، فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كى تشبع نهمها إلى القراءة والدرس ، فى ذلك المعزل . ومن ثم أقبل « العقاد » يعب من فنون البيان ومناحى الثقافة ما ساغ له أن يعب .

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص « العقاد » ملكة التأمل فى الحقائق ، والتعمق فى الأفكار ، فاكتست فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين ، وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض من أثره أيضاً أن استقر فى قلب « العقاد » حب الحياة والتشبث بها ، والكفاح فى سبيلها ، فإنه لما واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقاً بالحياة ، ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . وكان من عقبى ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة وثقة بالنفس ، ورهافة شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار ، فتجلى فى حياته وفى إنتاجه هذا اللون من القوة والصراع وصلابة القناة .

وأنت كذلك ترى الصرامة والجد والتوقر طابعاً جلياً فى أدب « العقاد » : شعره وترسّله . الجملة عنده بنيان مرصوص ، والكلمة فى مقاله لها موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر ، فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وقد لزمت « العقاد » عادة المطالعة ، حتى أصبحت له ديدناً لا يملك منه خلاصاً ، وعلى مر الأيام تأصل ذلك فيه ، فصارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى على نفسه أن يشوبها بما يخرجه عن تلك الوحدة ، فعاش فرداً فى صومعة القرائح والعقول !

تيسر « للعقاد » بذلك أن يعتصر زبدة الفكر من خير منابعه ، وأن يتزود بها ويتمثلها كما يتمثل الإنسان الغذاء ، فإذا هو دم يجرى فى الشرايين ليهب القوة والسلامة . فلا غرو أن تتسم فصوله بسمات الدراسة والتمحيص وسعة الاطلاع .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح فى آثاره ، فالعيب الجلى فى كتب « العقاد » أنها لا تصلح أن تزجى وقت القارئ قبيل النوم حين يتكئ على وسادة ، حتى إن كتابه « سارة » — وهو قصة — يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية يثير اليقظة ويشرد عن العيون ترنيق المنام ، فإن انخدع قارئ بكتب « العقاد » فاتخذ أحدها للقراءة قبيل نومه لم يلبث أن يطيب له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق فى عباب الفكر .

وأجمع القول فى أدب « العقاد » أنه صورة صادقة لحياته وخلقه . فهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من حياته العقلية والنفسية فى تلك الصومعة التى أولاها كل تقديس .

* * *

أما صنوه » المازنى « فقد طبعت نفسه على دعابة ومرح ، وقد تملى حياة اجتماعية حقة ، فتزوج وأعقب ، واختلط بالمجتمع ، وشارك الناس ... فكان من ذلك كله مزاج طريف تميز به أدبه ، فبدا قوى التملح ، جميل التظرف ، مشبوب النكتة ، وإنه ليبلغ فى ذلك حد العربدة ، يتخذ ألواناً

من المكايد ، ويمارس فنوناً من السخرية ، فلا يتمالك قارئه أن يجاريه في تلك الخفة . فيفتر ثغره عن تضاحك موصول .

و « المازني » كصنوه « العقاد » يصدق تعبيره عن شخصيته وحياته كل الصدق ، فإنك تجد في أسلوبه سهولة المأخذ ، وفطرية المظهر ، وشعبية الوصف . فيخيل إليك أنك لست ببالغ منه بعيد غرض، ولكنك إذ تتابع القراءة محدواً بطلاوة العبارة ، وسحر الحديث ، تتكشف لك دخائل من جوهر الحياة ، وحقائق من قلب المجتمع ، بسطت في هذا المعرض الأنيق الطريف ، لا وعورة ولا تعقيد ولا تفلسف !

ولغة « المازني » تنفرد بين لغات الكتاب بأنها تطوع البيان العربي الأصيل لمطالب التعبير العصري ، في منحى كأنه حديث مجلس ، وفكاهة سامر . وبأنها كذلك تطوع اللهجة العامية الصميمة للتعبير الفصيح بين طوايا المقال، ففيما يجري به قلمه تنساب الكلمة الجزلة المختارة والكلمة العامية الطريفة ، في نسق بديع ، تحسبه بادئ ذي بدء هيناً ميسوراً ، وهو عند الممارسة تقصر دونه همم الأقلام !

والقصة في أدب » المازني « عنصر له خطره ، ذلك لأنه يجلو في « مقاله » تجارب الحياة ، وأوضاع المجتمع ، وشئون الناس ، عارضاً ذلك ألواحاً تتراءى فيها الشخصيات والمشاهد والأحداث. ومن ثم كان طبيعياً أن يكون » المازني « — إلى جانب براعته في فن « المقالة » — أخا جهود موفقة في القصص الفني الخالص ، وأن يكون قصصه مستودعاً يزخر

يتقلبات الحياة ، وما يدور فى المجتمع من أسباب .

و « المازنى » و « العقاد » كلاهما بليغ الأثر فى توجيه الثقافة ، وتجديد الأدب ، وإمداد الصحافة بمختلف الألوان . . .

وكان لتماؤهما فى « المجمع اللغوى » — مجمع الخالدين — تسجيلاً لهذا التكامل بين شخصيتين لكل منهما منحى وأسلوب ، فلقد ضمهما المجمع « شاطراً ومشطوراً بينهما طازج » من الأدب الرفيع !

منصور فهمى

إذا أحضرنا فى مخيلتنا عصر ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وما كان فيه من وثبة فكرية وتطلع اجتماعى ، تجلى لنا على الفور لوح مصور تتلاقى فيه صفوة من نبهاء الشباب ، من بينهم : « هيكل » و « طه » و « ضيف » و « عزمى » و « منصور فهمى » .

وعجب أن يتلاقى هؤلاء فى إطار واحد، على الرغم مما بينهم من تفاوت فى النشأة ، واختلاف فى الدراسة ، وتباين فى الأهواء والأهداف ،

ولكن ثمة آصرة جمعت بين أولئك ، ووحدت كلمتهم لإعلاء راية الفكر فى « مصر » .

لقد كانت تسرى بين جنوبهم جميعاً روح فتية تهدف إلى ابتعاث أمة جديدة ناهضة ، وبث حركة فكرية فى شتى مناحى المجتمع المصرى من سياسة وثقافة وأدب واقتصاد .

هذه الصفوة الكريمة كأنما كانت عصبة قوية خرجت إلى مثابة الحضارة فى « أوربة » تتضلع من زاد العلم والمعرفة ، وترتوى من مناهل الحرية ، حتى إذا آبت إلى الوطن تسنى لها أن تستخلص الأمة من موقفها المتخلف ، وأن تغذيها بدم جديد . وأن تشيع فيها أسباب اليقظة والقوة

والتحضر ، فتمضى فى ركب الإنسانية إلى الأمام .

إن هذه البعثة لتعد الثانية بعد الرعيل الأول الذى بعثه « محمد على » إلى « أوربة » إبان حكمه ، وإن تأثير هذه ليماثل تأثير تلك ، من حيث إشاعة النور فى ربوع الوطن ، وتنشئة جيل جديد .

ما إن عاد هؤلاء الشبان — الذين أصبحوا فيما بعد قادة الفكر — حتى أحسسنا نشطة تدب فى كيان الأمة ، ويقظة تهز أوصالها . . .

كان لهم فى كل صحيفة مقال ، وفى كل حفل خطاب ، وفى كل معهد درس ، وفى كل اجتماع حديث ، وفى كل حركة أو دعوة أو عمل توجيه أو إيحاء أو ساعد أشدّ . . .

وسرعان ما التف حولهم الناشئة أنصاراً وشيعة ، يرتشفون من معين فكرهم الدفاق ، فتخلقت مدرسة هى « مدرسة التجديد » هدفها الحرية الفكرية ، وإقامة دعائم قويمة يعتلى بها صرح النهضة القومية ، وتسترد بها « مصر » مكانتها فى الصف الأول من الأمم الحية . . .

سطع « منصور فهمى » بين هؤلاء نجماً لمّاح اللألاء ، وتسامى علماً قوىّ الخفوق تتطلع إليه الأنظار .

رحل إلى « أوربة » لكى يعود أستاذاً فى « الجامعة » الناشئة ، ولكن كان أن عاد ليعمل خارج « الجامعة » بعض الوقت ، فإذا به يؤدى فى المحيط الثقافى والصحفى رسالته الجامعية ، رسالة التجديد والتنوير ، ناشط الفكر ، قوىّ الأثر . . .

إن نظرة خاطفة إلى معالم حياته لتجعلك تلمّ بعناصر تكوين نفسه ، وما جبل عليه من خلق . . .

تقلبت به الحياة ، ولم يكن له الحظ مطواعاً كل حين ، ولكنه أفاد من إخلاف حظه حيناً ومن تقلبات حياته المختلفة ، فلم تمرّ به مرحلة من تلك المراحل عبثاً . . .

كان يطلب العلم فى « فرنسة » ، فلم يكن ذلك الطالب الذى يحشو رأسه بالمعلومات ليظفر بالإجازات ، يرى فيها غاية المنى وفصل الخطاب ، وإنما كان يدرس ليتفهم ويتفطن ، وليمايز بين حضارة الشرق والغرب ، وليوازن بين ما يتلقى من المبادئ والقواعد والآراء وبين واقع الحياة فى دنيا الناس .

لقد جاوزت دراسته نطاق المسموع والمقروء إلى نطاق المشهود والملموس . . .

لقد رمى بنظره وراء الكتب والمحاضرات ، فمضى ينفذ بين أمواج الحياة ، ويسبر أغوار المجتمع .

وأخيراً دارت فلسفته حول محور « الخير والشر » فى طبيعة البشر ، ومدى استطاعة الإنسان أن يستكثر من الخير ويتجنب من الشر بما يستمسك به من أصول الأخلاق .

فى نطاق هذه الفلسفة عاش « منصور فهمى » حياته الثقافية ، وفى ظلها نما وبنى وشاد .

كان « منصور فهمى » — وهو طالب فى « باريس » ، متوفر على الدرس والبحث — كاتب سرّ للملك « فؤاد » وهو يومئذ أمير نزيل « باريس » . فلما قفل الدكتور الشاب إلى « مصر » خاض غمار الحياة ، فمرة هو فى « جمعية الهلال الأحمر » من أركانها ، ويوماً هو فى « مدرسة الحقوق » أستاذ نابه الذكر ، وهو فى اليوم بعد اليوم كاتب فياض القريحة ، أو محاضر سخيّ البديهة ، أو محدّث يتميز حديثه بالطلاوة والحرارة والجد .

ثم استقر به المقام فى « الجامعة » التى أعدّ لها ، وخلقت لأمثاله ، يصوغون فيها من ناشئة الوطن ذلك الجيل المنشود .

ولا مرية أن الفترة التى قضاها فى صحبة الملك « فؤاد » فى « أوربة » وفى « مصر » ، وأن اتصاله بالجماعات والمؤسسات العامة كان له فى نفسه أثر ملحوظ ، فقد بصره ذلك كله بالحياة الاجتماعية ، وأكسبه مرونة السياسة وحنكة الاشتغال بالشئون العامة ، وعلمه كيف يساير النظم العملية ، ولا ينساق فى أودية النظريات تشيع فيها أوهام الخيال .

وليس عجيباً أن نرى « منصور فهمى » ، بعد أن عرك الحياة فى حقائقها الواقعة ، قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشطاته بصبغة المحافظة والاستمساك بمأثور التقاليد وموروث القوميات . . . وقد بلغ فى هذه السبيل مبلغاً يسّر لبعض المتطرفين ، ممن فتنتهم خلابة الجديد وخطفت أبصارهم أضواء المدنية الحديثة ، أن يأخذوا عليه هذه الروح ، وأن يصفوها بالترمت الذى يسوق صاحبه إلى الرجعية وتقديس القديم .

ولكن الحق أن « منصور فهمى » قد اختط لنفسه خطة واضحة فى توجيه الحركة الفكرية ، خطة تأبى الثورة والانتقاض، وتؤثر الهوادة والرفق فى ملاءمة التطور والانتقال من حال إلى حال ، وتوصى بالتبصر فى ترك ما نترك من القديم، وفى قبول ما نأخذ من الجديد . . .

خطة تنكر التفريط فى أىّ مشخص من مشخصاتنا القومية، وترى فى هذه المشخصات عصمة للأمة من التميع والانزلاق وإهدار الكيان الخاص.

خطة تعتز بجوهرة الشرق الغالية : طابعه الروحى ، فلا مناص من إعلاء الروح على دعائم من العقيدة والإيمان . . .

درس « منصور فهمى » الفلسفة وما يتصل بها من فروع العلوم والآداب ، ثم شرع يدرّسها فى « الجامعة » ، ولكنه لم يكن يلقيها دروس معلومات ومقررات ، وإنما كان ينفض فى درسه قلبه وعقله وفكره ، فيبث روحه فى أنفس طلابه ، ويثير بين جوانحهم رغبة البحث والتطلع والتأمل ، توصّلا إلى تعرّف القيم الإنسانية فى حرية وإخلاص . . .

ولعل مردّ ذلك إلى أن حياة « منصور فهمى » ونفسيته موصولة أوثق اتصال بما يدرسه من الفلسفة ونواميسها ، ولاسيما الجانب الأخلاقى منها .

وعنده أن الفلسفة ليست نظريات وأخيلة ، وإنما هى وسائل تبلغ بالإنسان مراتب من حياة نموذجية رفيعة تدنيه من الخير بمعناه العام ، ومن السعادة فى مثلها الأعلى ، فهو يحاول أن يطوّع الحياة الواقعية لتلك الفلسفة المقررة . . .

وما حياته الشخصية إلا الصراع الأول لتلك المحاولة ، فهو أقرب شبهاً بمن يكتشف لوناً من الدواء ، لا يطمئن له بال إلا إذا زاول تجربته فى نفسه خاصة . . .

تواصل نشاط « منصور فهمى » عشرات من السنين ، نشاط فكرى واجتماعى موفور الثمرات . ومن عجب أن هذا النشاط فى ذلك الزمن الطويل لم يسجل منه حتى اليوم إلا نشاط ساعات قلائل ، حواه كتابه القديم :

« خطرات نفس » . .

لك أن تسميه كتاباً . ولك أن تسميه صوتاً منبعثاً من قرارة النفس ، يبغى أن ينفذ إلى قرارات النفوس . ولك أن تسميه سمراً رفيعاً يتحدث به صاحبه إلى الناس حديثاً عامراً بضروب من التأملات واللفتات فى الحياة والأخلاق .

لهذا الكتاب قيمته فيما سجل من آراء وخواطر ، وفيما تستشعره فيه من نبضات قوية تخفق بها الصفحات .

ولكن ثمة ميزة فى هذا الكتاب جديرة أن تكون موضع التقدير من مؤرخى الأدب فى نهوضه الحديث ، تلك هى ميزة التعبير والتصوير ...

كانت العربية فى فواتح هذا القرن تعانى فوضى المعانى وشرود الألفاظ ، فكان يعوزها التحديد والتركيز ، حتى يؤدى كل لفظ معناه الخاص ، وحتى لا تلتبس المعانى وراء زخارف الألفاظ ، فجاهد النفر

الكرام من روّاد الفكر فى تخير الكلمات وضبط دلالاتها على مختلف المعانى .

وإن أسلوب « منصور فهمى » فى « خطرات نفسه » لهو مظهر من مظاهر التوفيق فى هذه السبيل . فهذا الأسلوب يعد نموذجاً للبيان العربى فى طوره الجديد . . .

وكذلك لم تكن « المقالة » فى مطلع هذا العصر – على وجه عام – إلا مجموعة معلومات واستطرادات واستشهادات فى غير نظام أو تنسيق .

فمهد لها أولئك النفر الكرام ، يجعلون كل مقالة محدودة الفكرة ، محدودة المعنى ، واضحة الغرض ، حتى تسنمت تلك الذروة التى نراها فى عهدنا الحاضر .

وإن هذه « المقالة » لتدين « لمنصور فهمى » بأنه فى طليعة من أحلوها هذا المقام الكريم . .

لم تنته « خطرات نفس » بذلك الكتاب الذى تلقفته أيدى القراء ، وإنما هى أجزاء تتوالى وتتلاحق ، يرسلها « منصور فهمى » فى أحاديثه وخطبه يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة .

وقد ألقى منذ سنوات قلائل محاضرات فى معهد الدراسات العربية تناول فيها رائدات النهضة النسوية فى الشرق : عائشة التيمورية ، مى ، ملك حفنى ناصف . وكان لهذه المحاضرات صدى بعيد لما حوته من تحليل وتعليل يجلو لك الحقبة التى عاصرها « منصور فهمى » ووقف على ما فيها من خفايا وأسرار .

وإنه لتروعك منه صلابة فى الدفاع عن حق ، أو الانتصار لفضيلة ، صلابة قد تشعرك الرهبة والهيبة ، ولكن سرعان ما تنكشف لك تلك النفس عن طيبة وتطامن ودماثة طبع ، حتى لتكاد تأنس منها ببراءة الطفولة .

ولعل هذا سر قوة الرجل ، فإنه ليجمع فى إهابه غضبة الليث ووداعة الحمل ، ترى منه الجرأة والصلابة والإباء فى المواقف التى تتطلب ذلك منه ، فإذا تجافيت به عن تلك المواقف ، تجلى لك جليساً لين العريكة ، إنسانى الروح ، شاعرى الحديث .

لحياة « منصور فهمى » عنوان جلىّ ، هو : « الصداقة » !

الصداقة التى تحوى ضروب الفضائل الأصيلة الغالية من وفاء مكين ، وإخلاص محض ، ووداد مصفىّ .

وإن « منصور فهمى » ليسخو بصداقته ، حتى لتراه : صديق تلميذه ، صديق مرءوسه ، صديق عشيره . . .

إنه لصديق أريحى ، فى نبع صداقته لكل من يرجوها نصيب .

الدكتور هيكل

ما أشقى الأحياء بتوديع الراحلين !

لا بأس على من راح فاستراح . . . إذ يلقى به القدر فى ذمة غيب سرمدى ، تنحسر دونه الظنون .

وإنما البأس والبؤس لذلك الحى الذى يعانى الموت ، دون أن يواقعه ... إن كان لابد من رثاء ، فإن الحى بالرثاء خليق . .

يولد المرء ، والمنايا له بمرصد ، تراوده من حيثما يتلفت ، فهو يعيش منها فى زحمة من أشباح وظلال ، وهو أبداً منها على خشية وترقب ، إن سلم منها فى ذات نفسه ، لم يسلم منها فيمن حوله : ممن تصله بهم وشائج ، وتستوثق بينه وبينهم أسباب . . .

لقد كتبت علينا فريضة الموت ، ما لنا منها بد ، وما لنا عنها محيد ... بهذه الحقيقة آمن الخلق ، حتى من لم يؤمن منهم بشىء ، ولكننا على الرغم من ذلك الإيمان الشامل ، لا نملك الاستسلام لفريضة الأزل ، وحقيقة الأبد . . . يعتصر قلوبنا طائف الموت ، ونستشعر من كأسه مرارة لا يستسيغها أحد ، فهو المألوف الذى نجد له على الدوام أشد

الوحشة والانقباض . . . .

نحن لا نفتأ نتبع كل راحل لوعة ، بها يبكى بعضنا على بعض ، وفيها نندب ما فقدنا من صلات بيننا وبين من نعز .

وما كانت الصلات وقفاً على قرابة الأنساب والأرحام . . . فلربما كانت قرابة الفكر والرأى والروح أحق وأعمق . ولربما كانت ذكرياتها على الأيام أنقى وأبقى !

منذ قليل ساقنا خلفه الدكتور « هيكل » . نطالع منه آخر صفحة من مظاهر وجوده على ظهر هذه الأرض ، فتابعناها بخطانا مطرقى الرءوس يغشى وجوهنا قتام ، ويعرونا من الجزع خشوع . . . ولطالما طالعتنا منه فى مراحل حياته صفحات مضيئة مشرقة كانت تهز النفوس ، وتشغل الأفكار ، وتمتع الأذواق . . .

لقيت « الدكتور هيكل » أول ما لقيته فى « رأس البر » قبل أربعين سنة .

وما برحت أذكر هذه اللقية ، معتزًّا بذكراها أى اعتزاز . فهى ذكرى رؤيتى — وأنا فى مطلع الشباب — لرجل كنا نتسامع به ، ونقرأ له ، ونترقب آراءه الوثابة الجريئة ، دون تعارف وصحبة

كان « الدكتور هيكل » مدار حديثنا نحن الشبان ، ومثار جدالنا فى مجالسنا الصاخبة ، وقد فتنتنا منه توجيهات جديدة فى النقد والأدب والحياة . توجيهات مقتبسة من مشاعل الحضارة الحديثة يرجع فضل

اقتباسها إليه وإلى رفقائه من ذلك الرعيل الأول الذى عاد إلى الوطن يهتف بالشباب أن يحمل لواء التجديد ، وأن ينتقض على عبادة الأصنام .

أذكر الآن هذه اللقاءة الأولى ، و « الدكتور هيكل » يومئذ فى حلقة ضمت نخبة من الكبراء فى شرفة أحد الفنادق فى ذلك المصيف الطريف ، ولم أكن فى الحلقة إلا سامعاً لا يعدو طوره ، ولا ريب أنى كنت أشد إصغاء « للدكتور هيكل » منى إلى غيره ، وكذلك كنت أكثر شغفاً به ، وإقبالاً عليه ، على ذلك الرجل الذى زف إلى الأدب العربى باكورة القصص المصرى . . .

وما قصة « زينب » بسر .

نحن الناشئة الذين كانوا يتطلعون فى تلك الأيام إلى لون من الكتابة يصف الحياة المصرية ، ويترجم عن نفسيتها ، لم نكد نلقف قصة « زينب » حتى نصبناها قبلة نحوطها بالتجلة والإكبار ، ونستهديها سنن الطريق ، فلا غرو أن يكون صاحب « زينب » مهوى الأفئدة ومطمح الأنظار .

استهل « الدكتور هيكل » نشاطه محامياً ، ولعله ضاق ذرعاً بتلك المحاماة الفردية التى تطالب بالحقوق الشخصية ، وتعالج ما بين الناس من خصومة ونزاع ، فسمت همته إلى المحاماة العامة التى تضطلع بالقضايا الاجتماعية الشاملة ، فتنشد حقوق الشعب أجمع . ولذلك انطلق فى هذا الميدان الرحيب ، فظلت شخصية المصلح الاجتماعى هى الشخصية التى

تطبع نشاطه منذ بزوغه . وقد لازمته هذه الشخصية فى مراحل حياته وجوانب عمله ، وعرفها الناس فيه أديباً ومفكراً وسياسيًّا وزعيم حزب ورجل دولة .

لم يكد يمعن فى رحلته فى سبيل العلم الجديد ، ويرتوى من الأدب الأجنبي ، حتى تلفت حوله مسائلاً : أين اللون القصصى فى أدبنا العربى ؟

فلما لم يجد إلا تلك القوالب الجامدة التى علاها الصدأ ، وأخلقها الزمن ، انبعث يقدم ذلك المثال الطريف من القصة العصرية ، كأنه يقول : هذا جهد الابتكار ، وثمرة الابتداع ، فليكن شقًّا للطريق ، وليكن بذرة للفن المنشود .

ويروعه ما يرى من تخلف البلاد فى المجالات الحيوية من تعليم واقتصاد ، فيشرع قلمه معلياً كلمة الإصلاح ، داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة ، ولكن بصيرته النيرة تهديه إلى أنه لاسبيل إلى نهضة ما بقيت الأمة راسفة فى أصفاد التبعية والاستعمار ، وأن أمة لا تلى أمرها بنفسها عزيز عليها أن تستكمل وسائل التقدم والارتقاء . فحق على المصلح أولاً أن يقتحم ميدان السياسة ويجاهد ابتغاء الحرية ، ويدعو إلى تحطيم الأغلال ، وكسب الاستقلال .

وكذلك ألفينا « الدكتور هيكل » كاتباً وطنيًّا يسدد قلمه فى المعترك السياسى ، وما أسرع أن تجلت شخصيته فى الميدان ، وصادفت مواهبه

تربة خصبة تنمو فيها وتترعرع ، فنهض بجريدة « السياسة » على نهج صحفي غير مسبوق ، ورسم للصحافة اليومية في « مصر » مثالاً يضارع الأمثلة الكريمة للصحف السيارة في العصر الحديث .

وفي هذا المنبر اليومي سنحت « للدكتور هيكل » فرص الإفضاء بما تنطوي عليه جوانحه من رسالات البعث في شتى جوانب المجتمع المصري ، فطالعتنا « السياسة » أول مرة بصحائف أسبوعية منوعة موقوفة على الدرس والبحث في العلوم والآداب والفنون ، وانفسح صدر « السياسة » لحملة الأقلام من زعماء الفكر يجولون ما طاب لهم أن يجولوا في حرية وانطلاق .

وأحس « الدكتور هيكل » أن رسالة البحث الأدبي والاجتماعي يضيق عنها النطاق المحدود من الصحيفة اليومية ، وأن كثيراً من الأقلام يتطلب مجالاً أكثر سعة . فأنشأ » السياسة الأسبوعية « للوفاء بهذا الغرض . ولعله بذلك الصنيع قد شفى نفسه وأرضى ضميره ، إذ أفرد للعلم والأدب مثابة لا تشوبها شوائب الحزبية السياسية من تشاحن وعراك ، فهفا إليها كل قارئ ، مهما يكن متجهه السياسي ولونه الحزبي .

تلاقت في جنبات « السياسة الأسبوعية » قرائح الصفوة من أعيان الأدباء والكتاب والمفكرين وأصحاب الفنون ، فكانت مجمعاً ثقافياً يموج بالدراسات والمباحث ، ويجلو روائع تمثل طابع الفكر الجديد .

لم تكن « السياسة الأسبوعية » لهواً صحفيا ولاعبثاً ، وما كانت معرضاً أنيقاً لتزجية الوقت وتنعيم النظر ، وإنما خرجت بمباحثها ودراساتها كأنما

هى جامعة ضمت مختلف الكليات ، فيها لكل طالب زاد ، ولعلها كانت وليدة الضرورات والملابسات الاجتماعية فى تلك الحقبة من الزمن ، إذ كانت الجامعة الحكومية لما تزل فى مهدها ، طلابها نفر قليل ، على حين يتطلع شباب العصر إلى المعرفة والتأدب ، فكان على « السياسة الأسبوعية » أن تروى ظمأ الجمهور الراغب فى التثقيف والتنوير .

ضرب « الدكتور هيكل » فى غمار الحياة السياسية ، فعجمت عوده ، وأورثته تجربة وحنكة ، وبصرته بالحياة الاجتماعية وما لها من حقائق ودخائل ، فلم يظل ذلك الشاب الطرى العود ، المأخوذ بظواهر الحضارة ، الثائر على أوضاع المجتمع وتقاليد الناس .

وأحسسنا بوادر ذلك التطور فيما يجود به قلمه من آراء وتوجيهات عليها لوامع من التؤدة والاتزان ، تتجافى رويداً عن الدعوة إلى الهدم والانتقاض. ومن ثم اكتسبت رسالته الإصلاحية مرونة وطواعية ، واتخذت لوناً من اللباقة والمسالمة .

ولقد عجزت الحياة السياسية عن أن تصرف « الدكتور هيكل » عن ولعه المكين بالأدب ، ونزعته الأصيلة إلى حياة الفكر ، فكان يضن بوقت فراغه لا يبذله فى لهو أو دعة ، وإنما يعمره بتلك الفصول البارعة فى الموضوعات الأدبية على اختلاف مناحيها ، فاجتمع له من ذلك الثمر مؤلفاته التى أذكر منها : « فى أوقات الفراغ » ، و « تراجم مصرية وغربية » ، و « جان جاك روسو » ، و « والدى » ، و « عشرة أيام فى

السودان » ، و « ثورة الأدب » .

وعلى جميع هذه الكتب يغلب طابع واحد ، ومرمى متميز ، هو الجانب الاجتماعى ، ولعل كتابيه : « التراجم » و « جان جاك روسو » يكشفان لنا بواكير نزوعه وتطلعه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الحافلة بعظائم الأمجاد . فلما نمت تلك النزعة أثمرت فيما بعد أسفاره القيمة فى سيرة رجالات الإسلام ، وما عنايته بأولئك الأبطال إلا إبرازاً لهدفه الأكبر فى الإصلاح الاجتماعى ، بالكشف عن جوانب هذه الشخصيات ، ومناهجها فى بناء الأمة ، وممارسة الحياة .

وأروع ما قصد إليه « الدكتور هيكل » فى كتابه « حياة محمد » إبراز حياة النبى صلوات الله عليه فى صورة إنسانية محضة ، ليس فيها إغراق فى الوصف ولا نبو عما هو مألوف من طبائع البشر ، وإن فى ذلك لحدًّا فاصلاً يفرق بين ما كتب بالأمس عن النبى وما جرى به قلم « الدكتور هيكل » فى ذلك الكتاب . كان التوفيق حليفه فى الملاءمة بين طبائع البشرية وخصائص النبوة ، وما كان أحوج الأمة الإسلامية إلى هذا التصوير الذى يعقد بين الطرفين فى دقة تحقيق ، وعدالة حكم ، وخلوص من شوائب الأهواء .

ولم يكن عجباً أن يلقى هذا الكتاب ما لقيه من إقبال ، وأن يكون فى ذلك ما يغرى « الدكتور هيكل » باقتحام كنوز التراث الإسلامى الذى تحجبه الأوراق المصفرة ، والأساليب القديمة المستعصية ، فاندفع فى

مطالعاته مسترسلاً فى التمحيص والتخليص .

ولم يكن عجباً أن يحس « الدكتور هيكل » شعوراً غلاباً يحضه على اجتلاء معالم الذكريات ومواطن الأحداث التى حلق فيها فكره أثناء تأليفه « حياة محمد » ، فاستجاب لهواتف نفسه ، وذهب إلى البيت الحرام يؤدى المناسك ، ويتدلى فى نشوة وشغف تلك المعاهد المقدسة ، متنسماً عبق التاريخ الإسلامى فى انبلاج صبحه .

وجاشت بين جوانحه روح الفنان ، فما آب من حجته حتى ألفى قلمه يترجم ما انطبع فى سريرته من مشاهد ومشاعر ، فاتسقت له تلك الفصول التى ضمنها كتابه « منزل الوحى » تشيع فيها حرارة الوجدان ، ويتجلى صدق التعبير .

وللناقد المؤرخ أن يعد هذا الكتاب ختام عهد من الحياة الفكرية « للدكتور هيكل » ، وفاتحة عهد جديد لهذه الحياة واضح المعالم والسمات . فقد انطوى عهد الشباب النزاع إلى الهدم ، الثوار على مألوف الأوضاع ، وانفتح عهد الرجل الذى تسوده الطمأنينة والإيمان ، ذلك الذى يرى أن إذكاء النزعة الدينية ، والهتاف بأمجاد القديم ، لا يعتاق خطى الأمة ، ولا يتخلف بها عن الركب السيار . بل لعل ذلك مما يعينها على أن تستهدى بمقومات تسطع بها شخصيتها مستقلة واضحة التميز .

مضى « الدكتور هيكل » فى هذه السبيل ، يجلو التاريخ الإسلامى ، محبباً إلى العقلية الحديثة ، مرضياً عنه من المناهج المعتبرة فى البحث والدرس

والتحليل ، فأخرج كتابيه : « الصديق أبو بكر » ، « و الفاروق عمر » ... ولعل قارئ « الدكتور هيكل » فى ترجماته التاريخية يراه فيها كأنما يرضى ميله النفسى إلى الحياة السياسية . فهو فى هذه الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية أمام جملة من الأحداث الفاصلة ، يكثر فيها القواد والزعماء ، وتتناوح الآراء والأهواء ، وتتنازع الفرق والأحزاب ، فالمجال بين يديه خصيب للموازنة والمعارضة والترجيح ، ومن ثم يتابع فى هذه الآفاق التاريخية حياته السياسية ، ويمارس تجاربه فى تقليب وجهات النظر ، ودراسة الخطط ، ونقد الحكومات والحكام .

هيأت الأقدار « للدكتور هيكل » أن يكون رجل دولة ، وزيراً فى وزارات شتى ، وزعيم حزب سياسى ، ورئيس مجلس برلمانى . وقد تقلب فى هذه المناصب ، فما أحالت خلقه ، ولا طغت على روحه ، ولا طوعته لنظام مفروض ، وطابع مرسوم ، فهو فى جميع تلك المناصب يظلها بشخصيته ، فيسبغ عليها ما يريد من توجيه وإذكاء ، ولم يستطع واحد من مناصبه التى تسنمها أن يطويه تحت جناحه ، أو أن يملك قياده .

أتيحت « للدكتور هيكل » فى مطلعه نشأة طيبة ، واتفقت له فى شبيبته صحبة كريمة ، فاكتسب من الخصال الاجتماعية صفوة مهذبة أعانته على أن يكون مثلاً لرجل السياسة الرفيع . . . لقد صاحب « عبد العزيز فهمى » و « لطفى السيد » وأضرابهما من رجالات تفرد كل منهم بعبقرية خاصة ، وامتازوا جميعاً بعظمة النفس ومتانة الخلق .

أظهر ما تجلى من أخلاق « الدكتور هيكل » أنه رحب الصدر ، مرن فيما يواجه به الأحداث ، متواضع صادق فى تواضعه ، وديع أصيل فى وداعته ، وربما كانت هذه الخلة مثار ما نشب من نزاع بينه وبين مطالب الزعامة فى سلطانها الغلاب .

عاش « الدكتور هيكل » زكى النفس . وصاحب النفس الزكية يظفر بجوهر الصداقة فى نفوس الناس . ولقد ظل الرجل صديق جيله : سواء من خاصم ومن ناصر . . . وما أعرف بين معاصريه نظيراً له : خاض معمعة الخلاف فى الفكر والأدب والسياسة ، وظفر بالوفاق على تقديره وإكباره من الساسة والأدباء والمفكرين .

عركته خصومة الفكر والأدب بين المجددين والمحافظين ، وخصومة السياسة بين معسكرات الأحزاب . . . وعلى الرغم مما كان يتخلل هذه الخصومة أو تلك من حدة وعنف ، فإن « الدكتور هيكل » لبث فيها بارئاً من الحقد والضغينة ، وخرج منها لا يحقد عليه سياسى ، ولا يضطغن عليه مفكر أو أديب . . . ذلك لأن معاصريه عرفوا فيه عفة المقال ، ولمسوا منه شرف الهدف ، فما عهدوه متهافتاً على ممالأة الأنصار ، ولا مسفاً فى مناهضة الخصوم ، وإنما كان صاحب حجة ، ورائد فكرة ، وداعياً إلى رأى ، ومتطلباً لإقناع .

بدأ « الدكتور هيكل » حياته كاتب قصة ، وختمها كاتب قصة ...
أول كتبه قصته » زينب « وآخرها قصته : « هكذا خلقت» . . .

وفنه القصصى بين بدئه وختامه تمثيل حق لحياته فى مرحلتيها الطبيعيتين ، واستجابة صادقة لعصر الشباب حيث النمو والازدهار ، وعصر المشيب حيث النضج والاختمار . . .

كانت باكورته القصصية مظهراً لنزعة التجديد ، ورغبة الخلق ، فيها انتفاضته الوجدانية نحو وطنه ، وفيها معالجته تصوير الحياة فى رقعة كبيرة من هذا الوطن ، هى الريف . . . فتوهجت فى القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور محلية ، وتجلت شخصيات شعبية ، أريد بها جميعاً أن تحقق غرضاً هفت إليه نفوس الداعين إلى تجديد الأدب فى مستهل القرن الذى نعيش فيه ، ذلك الغرض هو إنشاء أدب مصرى السمات ، مصرى الأحداث ، مصرى الروح ، يتأكد به طابع المصرية فى التعبير والتصوير .

وكانت خاتمة أعماله القصصية تحمل نزعة غير تلك النزعة ، وهدفاً غير ذلك الهدف . . . فقد أصبح « الدكتور هيكل » رجلاً محنكاً ، خبر الحياة ، ومارس التجارب ، وتعمقت فكرته فى الأدب ، آمن بأن الأدب الحق هو الأدب الذى يستعلى على القوميات الموقوتة ، ولا يستند إلى الطابع المحلى المتقلب ، ومن ثم أخرج لنا فنًّا قصصيًّا فى إطار مصرى ، ولكنه معتدل الحظ من فورة العواطف ، وتوهج الوجدانيات ، عميق التغلغل فى دخائل النفس البشرية الشاملة ، وثيق الاتصال بالغرائز الإنسانية الثابتة ، تتجلى فيه عبرة الحياة وحقائقها الكامنة فى منحى من

التعبير هادئ طيع ، ولكنه قوى نفاذ .

أهدى إلينا « الدكتور هيكل » خير ما يهدى الأحياء للأحياء . . . تفكيراً من أجلهم ، وتعبيراً عن نجواهم ، ومواساة لهم فيما يشقون به من مكاره العيش وما يشق عليهم من أعباء الحياة .

وما نملك نحن الذين أفدنا منه ، واستمتعنا به ، أن نهدى إليه من شيء . . . إلا أن تكون هديتنا إليه تلك الخدعة التاريخية الكبرى : أن نستطيل عمره بالتذكار . . . أن نستبقى حياته بالتخليد . . . أن نعطر اسمه بالتمجيد !

أحسن الله جزاءه فى دار الجزاء . . .

أنطون الجميل

حينما أخذت القلم لأكتب كلمات أصور بها شخصية أديب الصحافة الأكبر « أنطون الجميّل » طالعني على الفور رسمان لرجلين من أعلام الأدب العالمي ، هما : « الفريد دي موسيه » الفرنسي ، و « أوسكار وايلد » الإنجليزي .

فلبثت هنيهة أفكر .

أية مشابه بين أديبنا العربي وهذين الأديبين الأوربيين ؟

يدرك المرء أحياناً ببصيرته أول وهلة حقائق من الحياة لم يكن ليدركها بإنعام النظر ، فإذا راح يمتحن ذلك الإدراك الفطري البدهي ، ويعرضه على موازين العقل وأقيسة المنطق ، تجلى له في الغالب صدق البصيرة وقدرتها على اكتناه سرائر الأشياء !

أول ما يروعك من صورة الأديبين الأوربيين ظاهرتان ، هما : الشاعرية ، والأناقة . . . تتجليان فيما يبدو عليهما من سمات وملامح ، وفيما يؤثران من شارة وزى .

فإذا ما عدلت ببصرك إلى صورة « أنطون الجميّل » توضحت لك هاتان الظاهرتان غاية التوضح .

وإنك إذ تساير مراحل حياته ، منذ عرفته « مصر » قبل عشرات من السنين إلى هذا اليوم ، تجد هاتين الخلتين تطبعان حياته بطابعهما الأصيل ، وكلما تقدمت به مراحل الحياة ألفيت جذورهما تتأصل ، وفروعهما تتسامق وتترعرع !

ولعلنا لو عرفنا « أنطون الجميل » فى معلمة الأدب العربى بأنه : « أناقة وشاعرية » لكنا بذلك قد أجملنا له تعريفاً يجمع بين الصدق والإبانة .

للرجل خصائص أخرى لها خطرها ، ولكن هاتين الخلتين أظهر ما فيه ، بل إنه يكاد يكون أكثر الناس اختصاصاً بهما .

شاعرية « أنطون الجميل » لا تتمثل فى صوغ القصيد ، فما أحسبه قد عنى نفسه ببناء بيت ، ولكن له مع ذلك قصيدة فريدة ترف فيها الشاعرية أجمل رفيف ، تلك القصيدة هى : حياته !

كانت براعة الاستهلال فى هذه القصيدة — يوم بزغ الرجل فى « مصر » — هى ولوعه بالشعراء ، يتصل بهم ، ويقبل على مجالسهم ، ويعقد بينه وبينهم أواصر الألفة والود .

فى هذا العهد كان لأستاذ الشعر « إسماعيل صبرى » ندوة تمثل مجمع الأدباء خير تمثيل ، فما أسرع أن ظفرت هذه الندوة « بأنطون الجميل » ، وأصبح كوكباً لامعاً فى أفقها الكريم . . .

بين أرجاء هذه الندوة تنفست شاعرية الرجل فى نشوة وارتياح ،

ولكنها سمت إلى أن تعبر عن طموحها ، فتجلى ذلك التعبير فى إخراجه مجلة « الزهور » ، وحسبك من اسمها عنواناً على تلك الشاعرية التى يفيض بها وجدانه الرهيف ، فالزهرة للشاعر مهوى نفسه ، ومجلى أنسه ، ومراد إلهامه !

سنوات أربع كانت هى عمر مجلة « الزهور » ، وكذلك الزهر قصير عمره ! ... ويومئذ لم تكن الصحف والمجلات إلا أضاميم أوراق سودت بأخلاط من منظوم ومنثور ، فتنضرت مجلة « الزهور » تسترعى بطرافتها أنظار القارئين . . .

كانت وثبة جديدة فى صحافة الأدب : أناقة فى الطبع ، جدة فى الإخراج والتنسيق ، انتقاء للرسوم والصور ، حتى إن حجوم الحروف وأوضاعها لم يفتها من العناية نصيب . . . فإذا المقال يجتذبك بخلابة منظره ، قبل أن يمتعك بجودة مخبره ، وإذا أنت مفتون بهذا التفنن فى تجلية الروائع العربية عصرية الروح على نمط رفيع . . .

تلاقت فى ميدان « الزهور » أقلام النابغين فى الأدب ، فأضحت المجلة جامعة لأدباء العروبة تصل بينهم على تباعد المواطن والأصقاع .

على أن المجلة تميزت بطابع الشعر ، فتألقت فيها عيون القصائد ، وتناثرت روائع الدراسات للشعراء . . .

وإن ما عنى به صاحب المجلة من تجود فى الاختيار ، ودقة فى التمييز ، قد يسر له — فيما بعد — أن يقتطف من شعر « الزهور » طاقة عطرة سماها

« مختارات الزهور » هى فى الحق أول مجموعة شاملة لأنماط الشعر العربى فى بواكير نهوضه الحديث ، حاوية لضرب من التعريف بالشعراء فى أسلوب وصفى جديد .

قرأنا فى هذه المجموعة « لإسماعيل صبرى » و « شوقى » و « حافظ » و « محرم » ومن إليهم . وإلى جانبهم قرأنا « لخليل مطران » و « بشارة الخورى » و « عمون » و « الملاط » وكثير غيرهم ، فاجتلينا صفحات مشرقة ، وألواحاً فنية ، هى نخبة تفصح عن ذوق مصفى وتمييز دقيق .

لا مرية أن « لأنطون الجميل » موهبة أصيلة فى تذوق الجمال وصدق الحكم على الجيد من آثار الفن . . .

وإنه ليشبه فى هذه الموهبة أولئك الخبراء الفنيين الذين أوتوا مواهب عجيبة من دقة الحس ، ورهافة الذوق ، وإصابة الرأى ، لا يعييهم تذوق الأشياء ، والحكم على مقدار جودتها . . . فنراهم فى الشراب وفى التبغ مثلاً أئمة حكاماً ، تلجأ إليهم المصانع مسترشدة بما يصدرون من أحكام فيما يتذوقون من خليط لفافة أو مزاج شراب !

ليس « أنطون الجميل » إلا واحداً من هؤلاء الذواقين الحكام الذين سخت عليهم الطبيعة بموهبة التخير الصائب ، والتقدير الصحيح . . .

الشاعرية والأناقة تلازمان « أنطون الجميل » فى ملبسه ، وفى حديثه ، وفيما يجرى به قلمه . . .

مقاله فى أى موضوع يطرقه قصيدة أنيقة خلابة الرواء ، ينتقى ألفاظها

انتقاء البستانى للناضر من الزهر ، وينسق جملها تنسيق فنان فياض العاطفة بحب الجمال .

ومهما يكن من دقة الموضوع الذى يتناوله ، ومبلغ جده وخطره ، فإنك تحس شاعرية المعانى والأفكار تقطر رقة أو تتلظى حمية ، خالصة أبداً من وعورة أو جفاء ، وإنك تراه يصب آراؤه فى فقر أدنى إلى أبيات القصيد .

فإن مددت عينك إلى مؤلفات « أنطون الجميل » وجدت الرجل كما هو ، لم يتعد طبعه الأصيل : دراسات للشعراء ، من مثل « شوقى » و « إسماعيل صبرى» و « ولى الدين يكن » ، هو فيها شاعر أنيق يشدو ويتغنى ، ويوقظ فطنتك لتتعرف مواطن الجمال .

ومرة أراد أن يقتحم ميدان الحياة العملية فى تأليفه ، بعيداً عن آفاق الخيال ، فانتخب مؤلفاً أجنبيـاً نقله إلى العربية ، فإذا الشاعرية الغلابة فى طبع « أنطون الجميل » تأسره فى هذا الاختيار ، وإذا الكتاب هو : « الفتاة والبيت » . . .

صفحات تثير فى النفس حب الجمال ، وتطبعها على الأناقة ، وتربى فيها ملكة الذوق السليم . . . فكأنه بهذا الكتاب يعمل على نشر رسالة الشاعر الأنيق !

فى هذا الكتاب روائع من جديد الألفاظ ، ورشيق الفقر ، فأنت إذ تمضى فى قراءته كأنك تساير جدولاً رقراقاً توشيه الرياحين . . .

من الظلم أن نقصر الحديث عن « أنطون الجميل » على شاعريته الأنيقة ، فثمة شيمة لها أثرها البارز فى حياته ، تلك هى المرونة والطواعية . ولكن أليست هذه الشيمة إحدى « منتجات » الشاعرية والأناقة ؟

تمتاز حياة الرجل بتلك المرونة التى كانت معواناً له على الفور والتبريز . . . ولعل مرونته العجيبة هى التى أعانته على أن يظل رهين الوظيفة الحكومية أكثر من خمسة عشر عاماً دون أن تصبه فى قالبها المعروف . . . ويخيل إلىّ أن هذه الوظيفة كانت كلما همت أن ترفع يدها بخاتمها تريد أن تهوى إليه لتطبعه لم يلبث أن ينحرف عنها ويزيغ ، تؤازره تلك المرونة التى بفضلها يتسنى له أن يكون على وفق ما يريد .

خرج « أنطون الجميل » من الوظيفة لم يلحقه منها تبعات ، خرج محتفظاً بشخصيته ، فإذا هو كما هو ذلك الشاعر الأنيق اللبق ، ذو النفس الحرة ، والرأى الصريح ، والأفق الرحيب .

ولما تسنم مكانه من « الأهرام » تجلت فيه شيمة المرونة فى أسمى صورها ، إذ صادفت فى تلك البيئة مجالها الزاخر .

خمسة عشر عاماً أخرى ، مرت به فى هذا العمل الصحفى ، وهو يقف دائماً موقف المحايد البصير ، يصرف المآزق فى لباقة وحنكة ، ويجنب حياده الدقيق طوارئ الأحداث وشوائب الأهواء .

ليس حياد الرجل فراراً من جهاد فى سبيل الخدمة العامة ، يغريه به فقدان المبالاة ، وإنما حياده ترفع حين يجب الترفع عن الخوض فى معارك

حزبية ليست وثيقة الأعراق بالصالح العام ، وأحياناً يتمثل هذا الحياد فى إفساحه المجال للآراء المتنازعة فى حرية وطلاقة ، رغبة فى التنوير والتبصير .

إذا التطمت خصومات الزعماء والساسة ، وتدسست نزعات النفوس مقنعة بلبوس الصالح العام ، ألفيت » أنطون الجميل « يطرق إطراقة الكريم ، ويغضى إغضاء من يبغى ستر هذه المشاحنات وتقريب شقة الخلاف .

فإن جد الجد ، وكان الصالح العام سيد الموقف ، رأيت الليث ينبعث من عرينه ، وسمعته يطلق زئيره ، جاهراً بالرأى فى غيرة وإخلاص ، دون تجريح أو تسفيه أو تهور . . . .

واحتواه مجلس الشيوخ ، فكان موقفه فيه مثيل موقفه فى « الأهرام » : أذن تتصامم حين تتهاتر منافسات الأحزاب والأشخاص ، فإن أخذت عليه المسالك ، وضاق بالصمت ، وألقى نفسه فى المعمعة دون اختيار ، أنجده من حضور الذهن وسرعة الخاطر مدد ، فتراه ينسل من المأزق فى تحيل ولباقة ، وله فى هذا الباب طرائف تؤثر وتروى .

ما كان « لأنطون الجميل » أن يتملك ناصية الحياد النبيل ، وأن يصبر عليه ، لو لم تجتمع له خلال من رحابة الصدر ، وكرم النفس ، والزهد فى صغائر الشهوات التى تحفز صاحبها إلى الاستطالة والحقد والجحود . . .

وليس بدعاً أن يكون « أنطون الجميل » هو « الصديق المشترك الأعظم » لسائر الساسة والقادة وأهل الرأى ، فإن فيه أكرم خلة يلتمسها الصديق فى الصديق ، تلك هى خلة الوفاء . . . وطالما آنسنا مظاهر هذه الخلة فى مناسبات كثيرة . . . وإن وفاء « أنطون الجميل » ليسبغ ظله على الأحداث الماضية ، والذكريات العزيزة ، فهى تهز قلمه ، وتجد من أريحيته تلبية واستجابة .

شخصية « أنطون الجميل » لا غنى عنها فى الميدان السياسى ، وموقف « الأهرام » لابد منه فى الميدان الصحفى ، ولكننا لا ننتظر أن تكون شخصياتنا السياسية قاطبة على غرار شخصية ذلك المحايد النبيل ، وليس بجائز أن تصير صحفنا كلها على نحو تلك الصحيفة الناجية من شواظ المنافسات والخصومات ، فهذا لا يوائم منطق الحياة وطبيعة البشر . . . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » !

بيد أن « الأهرام » وقائدها الأمين ، كلاهما عنصر جوهرى ضرورى للسياسة وللصحافة ، حتى لا يكون الميدان كله نهبة للتطاحن والعراك !

نجيب الريحانى

شاب موظف فى إحدى الشركات الأجنبية ، يعمل هناك بأجر متواضع ، لا هم له إلا أن يحيا فى بيئة عمله حياة طيبة ، وليس له من هدف إلا أن يحظى بمكافأة أو درجة ، وقد يسمو به التمنى إلى أن يحلم بمكان الرياسة فى القسم الذى يعمل فيه ، ليستمتع بما يستمتع به الرؤساء من سلطة وجاه .

ذلك الشاب هو « نجيب الريحانى » ، أو — على الأصح — « نجيب ريحانة » فقد كان مشهوراً بهذا الاسم قبيل الحرب العالمية الأولى .

تخرج فى إحدى المدارس الأجنبية ، فتزود بثقافة أجنبية ، أغرته بالمضى فى المطالعة ، يشغل بها أوقات فراغه . وألفى بنفسه يبذل الموفور من عنايته للأدب التمثيلى ، إذ آنس من أعماق قلبه استجابة غامضة لهذا اللون من الأدب الفنى .

ولم يلبث ذلك الميل أن ذكا وتوقد ، فأصبحت المسرحيات تملك عليه نزعة المطالعة ، وإذا هو يرتاد دور التمثيل التى كانت قائمة فى هذا العهد ، ويترقب قدوم الفرق الأوربية التى كانت تزور « مصر » فى مطافها بين الحين والحين .

واستبد به الميل إلى مشاهدة التمثيل ، حتى أوقعه ذلك فى مآزق وأزمات مالية ليس له إلى احتمالها من سبيل . وكثيراً ما اضطر لضيق ذات يده أن يتسنم أعلى المقاعد فى دور التمثيل ، حتى لا يحرم شهود ما هو معروض من المسرحيات ، فإذا رجع إلى داره بعد المشاهدة والتفرج ، ومضى حجرته يختلع ثيابه ، رأيته قد وقف تجاه المرآة يتفحص قسمات وجهه ، ثم انطلق يحاكى مشهداً من تلك المشاهد التى ملأت عليه سمعه ، وخلبت لبه !

وقد يغفل عن وقته المتأخر من الليل ، فيتصايح عالى الصوت ، ويأتى بحركات تمثيلية ثائرة ، فلا يعتم أن يسمع طرقاً شديداً على الباب ، وأصواتاً جهيرة من هنا وهنالك ، تزجره وتنهاه عن التمادى فيما هو فيه ، إبقاء على سكينة الليل ، وصوناً لراحة النوام . . .

فيثوب إلى رشده ، وينتبه إلى أنه ليس على منصة المسرح ، وإنما هو فى عقر داره ، بين حوائط حجرته ، قريب من سريره ، فلا يملك إلا أن يتسلل مستخفياً تحت لحافه ، مطلقاً شخيره الحاد ، موهماً طراق الباب أنه فريسة كابوس مزعج وحلم مثير !

وعلى مر الأيام ، عرف طريقه إلى « قهوة الفن » ملتقى المولعين من الناشئة بالتمثيل وما إليه ، فما أسرع أن اختلط بهم ، واندس فى مجالسهم ، يشبع نهمه إلى الحديث والمناقشة والنقد ، فى ذلك الجو الصاخب الذى يتسع لكل ما يقال ، كما يقال !

وصارت « قهوة الفن » مثابته الحبيبة إلى نفسه ، يستمرئ الحياة فيها إذا حضر ، ويهفو إليها إذا غاب .

وكان حين يقصد مكان عمله ، فى النهار ، يحس التراخى والفتور ... وطالما أغفل الأوراق تسبح على مكتبه ، ويموج بعضها فى بعض ، وانطلق هو يسبح فى آفاق أخرى ، آفاق المسرح الشائق بأخيلته ومباهجه وأمجاده .

وانتبه مرة إلى أن أقلام الرصاص التى كانت تزحم مكتبه لم يبق منها قلم يصلح للكتابة ، فقد جعل يقرض أطرافها فى أوقات أحلامه ، لا يعى ما يفعل ، حتى أحالها أنقاضاً متآكلة !

وشد ما كان يحرص على أن يدس المسرحيات بين أوراق عمله ، وينكفئ عليها يقرؤها فى جد وشغف ، موهماً رفاقه أنه منصرف إلى إنجاز ما بين يديه من الأوراق .

وأقبل مرة على مكان عمله ، فراعه أن موظفاً آخر قد حل محله فى مكتبه ، فراح يتبين جلية الأمر ، فبرز له الرئيس يعلمه أن الشركة ضاقت ذرعاً بأقلامه المتآكلة ، وبتلك المسرحيات التى يخفيها بين الأوراق !

فخرج كاسف البال ، يفكر فيما نابه ، لا يدرى إلى أى مصير يساق ؟

ولكنه لم يكد يتقدم خطوات فى الشارع ، حتى أحس بأن الدنيا أشرقت لعينيه ، وأن الآفاق قد انفسحت أمامه ، وكأنما قد انزاح عن كتفيه عبء فادح . . . فانبرى يقطع الطريق بخطا ثوابت ، وهو يتلفت

يمنة ويسرة ، مفتر الثغر ، يهيم بقوله :

كان ما كان ، ورزقى على الله !

وشعر بشيء يتحرك فى جيب سترته الأعلى ، فإذا قلمه الرصاص يتطلع إليه مدهوشاً حنقاً ، وكأنه يأخذ عليه ذلك المرح الطارئ فى موقف إشفاق وتحسر . فاجتذب القلم من جيبه ، فإذا هو أحد تلك الأقلام المتآكلة المعضوضة ، فأمسك به وقتاً ينظر إليه فى سخرية وتهكم ، والتفت فى وقفته صوب دار الشركة ، وقذف بالقلم نحوها فى مقت وازدراء . . . ولعل القلم قد أصاب المرمى ، فرق إلى الحجرة عائداً إلى مكانه من المكتب ليسلم زمامه إلى من هو أحق به !

توالت الأيام على الشاب متنقلاً بين « قهوة الفن » وحجرة بيته ، فهو فى القهوة يلقى رفاقه ، ويعب من أحاديثهم ، وهنالك فى الحجرة يطبع على مرآته مشاهد التمثيل التى تعج فى رأسه . وما يزال يفعل ، حتى يثور به الجيران ، فيلوذ بالفراش ، ملقياً تبعة إقلاق الراحة على ذلك الكابوس المخيف الذى لا يد له فى جلبه ، ولا قدرة له على دفعه !

قضى الشاب فترة يحيا حياة العطلة والطلاقة ، وكلما تقدمت به الأيام ألفى جيبه يتداعى ، وأحس على الرغم منه قلقاً يساوره ، وكأن هاتفاً يصيح به :

إلى أين ؟

ولكن الشاب لا يلبث أن يستعيد طمأنينته ، ويمدها بتلك الحيوية وذلك البشر اللذين يكمنان فى طوايا نفسه ، فيردد قوله :

فرج الله قريب !

ويوماً وجد نفسه قد احترف التمثيل فى إحدى الفرق ، فراح يعمل فى همة ومضاء ، وأخذ يتولى أدوار المآسى والفواجع ، ولعله أبى أن يقوم بتمثيل أدوار المهازل والأفاكيه ، ترفعاً بنفسه عن التدلى إلى مواقف لا تليق بممثل خليق بالاحترام !

وعلى الرغم مما بذل ممثلنا الشاب من جهد ومثابرة واهتمام ، فقد أخلفه التوفيق ، ولم يلقه النظارة بكبير التفات . وزاد من كربته أنه أحس الهمز واللمز يثر حوله ، وأعين الرؤساء ترميه بالنظر الشزر .

وحل يوم خرج فيه الشاب من تلك الفرقة ، وقد ألقى إليه أجره ، مشفوعاً بالرجاء إليه ألا يعود !

وانصرف الشاب كاسف البال ، مهموم الفؤاد ، ولكنه ما عتم أن التفت إلى المسرح يودعه بنظرة لوم وعتاب ، وهو يهمهم :

أنكرت اليوم قدرى . لا علىّ . أرض الله واسعة !

ثم رنت ضحكته ، وأسلم ساقيه للطريق .

عاود وكره فى « قهوة الفن » وطال تعطله ، وكلما حزبه أمره ، واحلولكت الدنيا أمام عينيه ، فزع إلى كوامن المرح فى أعماق نفسه ، يغالب بها الضيق والبأساء !

هذه « قهوة الفن » تهيئ له متعة النفس وأنس الحديث ، ولكنها لا تسمن ولا تغنى من جوع . . .

وطاف برأسه طائف يغريه بأن يعود إلى حيث يستغفر قلمه الرصاص المعضوض ، ويقسم له على أن يكرم صحبته ، وأن يحميه من عبث أسنانه . . . ولكن منظر هذا القلم الجامد العبوس كان ينفر من رأس الشاب فكرة العود إلى الدفتر والحساب ! . .

وذات مساء كان يجلس فى « قهوة الفن » متخاذل الأوصال ، يهيم فى أخيلة فساح ، وهو يحاول أن يستبقى عقب اللفافة بين أنامله ما وسعه أن يستبقيه ، فسمع صوتاً يحييه ، فالتفت صوب الصوت ، فرأى صديقاً لم يره منذ فترة ، ومرت لحظات عامرة بألوان الحفاوة والتهلل ، ثم أقبل الصديق الزائر على صديقه يتفحصه ويتفرس فى ملامحه ، ثم قال :

كم قرشاً فى جيبك الآن ؟

فذهل الشاب مما سمع ، ولكنه ابتسم لصديقه قائلاً :

أتراك اخترتنى هدفاً لمشروع اقتراض ؟

فلاطف الصديق كتف الشاب ، وهو يقول :

ما كان ليخطر ببال أحد أن يطلب منك شيئاً . . . إن الإفلاس ليتلألأ على محياك !

ــ فيم سؤالك إذن عما يحتويه جيبى ؟

ــ ليطمئن قلبى !

ــ ماذا تريد منى ؟

ــ ألا يهفو فؤادك إلى أن تكسب الليلة « ريالاً » ؟

– من يزهد فى « ريال » ؟

– إذن هيا بنا . . . عدنى أن تحقق ما أرغب إليك فيه !

– لك ما تشاء !

فى هذه الأيام كانت « القاهرة » قد أضافت دعيًّا من أدعياء العلم ، ومشعوذاً من مشعوذة الفن ، يعرض على الجمهور فى أحد المسارح المعروفة ضروباً من التنويم المغنطيسى والكشف عن سرائر النفوس . . . وكان من خفايا البرنامج أن يدس هذا الرجل بعض أعوانه بين مقاعد النظارة ليعول عليهم فى الاستجابة له والتأثر به أثناء قيامه بالشعوذة والتمويه . . . وكان يرسل من يتصيد له هؤلاء الأعوان من القهوات وأندية الليل ، فشاءت العناية الإلهية أن يكون « نجيب ريحانة » فى هذه الليلة كبش الفداء !

وتلقى الشاب من المشعوذ تعلياته ، واندس بين المتفرجين كأنه واحد منهم . . . وكان البرنامج أن يتقدم الشاب يعرض نفسه على المشعوذ ليجرى عليه تجاربه ، فاعتلى منصة المسرح أمام جمهور زاخر متطلع إلى ما يكون ، وطفق المشعوذ يجرى عليه إيهامات التنويم ، فقام الشاب بدوره المتفق عليه فى أسلوب طريف وحركات متقنة أثارت إعجاب الجمهور ، وأرادته على الضحك والمراح . وما لبث النظارة أن احتد تصفيقهم ، ونسوا أنهم يتطلعون إلى واحد من المتفرجين ، لا إلى ممثل يقوم بدور ينتزع الضحكات .

صدر الشاب عن المسرح يفكر فى شأنه ، وما مر به الساعة من أحداث . . .

لقد نهض بتمثيل دوره ، لم يبذل عناء ، ولم يتصنع موقفاً ، وإنما ترك نفسه على سجيتها فى غير تكلف ولا تعمل ، فكان ما شهده من توفيق لم يظفر به من قبل وهو يبذل قصارى الجهد أثناء تمثيله أدوار المآسى والفواجع !

قرّ فى ذهن الشاب أن أقوى دعائم النجاح فى التمثيل هو الارتكاز على الطبع ، ومجانبة التصنع ، وتوخى الصدق فى الأداء . . .

وفطن إلى حقيقة غربت عن باله ، فيما مضى من أيامه ، تلك هى أن له موهبة فى أداء الأدوار التى تقوم عليها المهازل والأفاكيه ، فنى مزاجه الروحى استجابة لهذا اللون من الفن التمثيلى الجميل .

ولطالما كانت جسام الحقائق رهن ملابسات الحياة وسوانح الأحداث ، لا تتكشف قسراً بالقصد والالتماس ، قدر ما تتكشف اتفاقاً واعتباطاً فى مجرى الشئون .

واعتاد الشاب « قهوة الفن » يقضى سهراته فيها وهو يفكر فى جديد كشفه عن خفايا موهبته ، وعما يتطلبه التمثيل الحق من التزام الصدق فى الأداء ، والحذر من تزوير المواقف والانفعالات .

وما هى إلا أيام حتى دعى إلى المشاركة فى التمثيل عضواً فى فرقة جوّالة ، فاشترط أول ما اشترط أن يباعد بينه وبين مواقف الجد وأدوار المآسى والفواجع . فنزلت الفرقة عند شرطه ، ووكلت إليه ما رغب فيه من هزلى الأدوار ، فأصاب فيها موفور النجاح ، ورسخ فى ذهنه أنه لم يخلق

إلا للاضطلاع بهذه المواقف ذات الطابع الفكه التى تثير حولها زوبعة من التضاحك .

وعجب أول الأمر من أن هذه المواقف على بساطتها ونزولها فى المحل الثانى هزمت أمامها مواقف البطولة الحافلة بالشئون الخطيرة والأقدار الحاسمة ، تلك المواقف التى تدوى فيها أصداء الصراخ والضجيج . وتنهمر حولها شآبيب الدموع ! . . .

ولقى الشاب من رفاقه فى الفرقة غير ما كان يتوقع . فقد تنكروا له ، وازوروا عنه . ولم يلبث أن تعالى حوله فحيح الدسائس والأضغان .

ويوماً وجد الشاب نفسه قد ألقى إليه أجره آخر السهرة ، مشفوعاً بالرجاء إليه ألا يعود . . .

فأدبر عن الفرقة ، تتخايل على فمه ابتسامته الفلسفية الخالدة !

والتقمته « قهوة الفن » يجلس فيها جلسته المعهودة ، ملقياً ظهره إلى الكرسى فى غير اكتراث ، محدقاً فى السماء يستكنه فى أبراجها خوافى الغيب ، ويتعجب من تصاريف القدر وطبائع البشر ، مناجياً نفسه بقوله :

أخرجنى الإخفاق من الفرقة الأولى ، وأخرجنى النجاح من الفرقة الأخرى ، فالإخفاق والنجاح سيان فى هذه الحياة الحمقاء ، وهأنذا أصير منهما إلى معدة خاوية !

وليلة بينما كان غريق هذا العباب من التفكير ، أحس قدوم رفيقه

« عزيز عيد » . . .

دخل بقامته القميئة ، وعوده الضامر ، تسوقه خطاه الشاردة ، وهو يتلفت حوله لفتاته الذاهلة ، وعلى صلعته اللامعة تنعكس الأضواء . . .

فأقبل على صديقه الشاب يحييه تحيته الحالمة ، ثم اتخذ مقعده عن كثب منه : وما لبث أن قال كأنه يحدث نفسه ، دون أن يواجه الشاب بقوله :

فيم تفكيرك ؟

فأجاب الشاب ، ونظره عالق بأبراج السماء :

أفكر فى ذلك النحس اللجوج الذى يتعشقنى لوجه الله !

فنهض « عزيز » يذرع أديم القهوة بخطاه المترهلة ، ويداه معقودتان إلى ظهره ، وظل وقتاً فى جيئة وذهوب ، وإذا به يقف أمام الشاب يحدق فيه ، ثم صاح :

ما اسمك ؟

ففغر « نجيب » فاه من عجب ، وقال له متضاحكاً :

أحسبت لى فى كل يوم اسماً جديداً ؟

— أجبنى فى غير مجادلة .

— اسمى « نجيب » .

— أكمل اسمك . . .

— « نجيب ريحانة » .

فضرب « عزيز » بيده كتف الشاب ضربة أزعجته ، وقال :

تلك هى المسألة كما يقول « شكسبير » . . إن لى فى النحس والسعد رأياً لا يخيب، وأنا زعيم لك بأن فى الأسماء أسراراً كطوالع الأفلاك . . .

ــ لا أدرى إلى أين تذهب بى وبك فلسفتك العرجاء !

وانطلق الشاب يقهقه ، فبدا » عزيز « فى وقفة جد واهتمام ، وقال :

الموقف لا يحتمل هزلك الرخيص . . . قول فصل . . . إن أردت النجاح فغير اسمك . . . لا أقصد تغيير اسمك كله ، ولكن بعض التعديل . . . وبعبارة أخرى : يجب أن نخرج اسمك إخراجاً جديداً . . . لقد اخترت لك اسم « الريحانى » بدلاً من « ريحانة » . فى كلمة « الريحانى » رفعة وجدة وفن . . .

فصاح « نجيب » :

لقد أنبتك عنى فى تغيير اسمى ، فافعل به ما بدا لك . . .

ــ حسناً . . . استقبل منذ اليوم بواكير سعدك !

وأدار « عزيز » أحد المقاعد ، وجلس عليه ، واضعاً ذراعيه على ظهر المقعد أمامه ، وقال :

علينا أن نساير الزمن يا صديقى . . . الاسم الفنى ذو الرنين اللطيف يجب أن يحل محل الاسم العتيق الذى سحب عليه الزمن ذيله !

واندفع يلقى على صديقه محاضرة فى فلسفة الأسماء ، وصلتها بالفن ،

وما لهذا كله من حظوظ فى السعود والنحوس !

أصغى « نجيب » لهذه المحاضرة ، وانتهى به الأمر إلى التثاؤب والتمطى ، وخشى أن يسقط رأسه تحت وطأة النعاس ، فبذل ما بقى من جهده فى قوله :

ألا تخبرنى ما هو كسبى من تغيير اسمى ؟

فوقف « عزيز » منتفخ الوقفة ، وقال :

أول الغيث أنى ملحقك بفرقتى التى أعمل على تأليفها . . .

فطار النوم من جفنى « نجيب » وأقبل على صديقه يسائله فى شأن تلك الفرقة المنشودة ، وما يعده من برنامجها الفنى فى عالم التمثيل .

ألف » عزيز « فرقته التمثيلية الهزلية الجديدة ، فسطع فيها كوكبان : « روزالى يوسف » و « نجيب الريحانى » .

وكانت الروايات التى تعرض على المسرح مهازل مترجمة من نوع الملهاة « الفودفيل » ، فاجتذبت الفرقة جمهور النظارة على اختلاف طبقاته ، وأصابت بادئ الأمر نجاحاً كاد يخمل الفرق الجدية الوطيدة .

ولكن ثمة عامل دفين وقف تيار هذا النجاح ، ولم يكن ذلك العامل وليد منافسة أو مناوأة من العداة والحساد ، وإنما كان مرجعه إلى جرثومة النحس التى اتخذت من « عزيز » مرتعاً خصباً تنمو فيه وتترعرع . . . ولقد كان « عزيز » يطارد هذه الجرثومة فى نفوس رفاقه ، بيد أنه كان ينسى نفسه ، ومن ثم لقيت الجرثومة فى تلك النفس ملاذها الأمين !

وحان الوقت الذى ينفرط فيه عقد الفرقة ، فألفى « نجيب » نفسه يتبوأ عرشه العتيد فى « قهوة الفن » يسرح بصره فى الفضاء العريض ، وينفذ بأنظاره بين أمواج الفلك ، متصفحاً ذكريات لياليه فى فرقة « عزيز » وما تهيأ له فيها من تجلية وانتصار .

وعلى الرغم من أنه كان يقضى أيام تعطل وفراغ ، فقد كان مؤمناً بما بشره به « عزيز » حين أراده على تغيير اسمه ، إذ قال له :

استقبل منذ اليوم بواكير سعدك . . .

كانت « مصر » لهذا العهد ، تخوض محنتها الكبرى فى الحرب العالمية الأولى ، تعانى أزمات نفسية صعاباً من الحماية الإنجليزية وما إليها من ضائقة وضغط وحكم عرفى وامتهان للكرامة الوطنية وحقوق البلاد . . .

وكان المسرح المصرى فى أغلب الأمر بمعزل عن الاستجابة لما يموج فى الأمة من تأثر وانفعال ، وإلى جانب ذلك لم يكن للمسرح من طابع إلا طابع الجد والتزمت والوقار . . . وجل ما يعرض من الروايات أجنبى الروح من نتاج الترجمة ، ليس فيه ما يتصل بأهواء الناس ، أو يسرى عنهم فى محنتهم النكراء .

فصدف الناس عن المسرح الجدى ، وتركوه قاعاً صفصفاً يعانى الركود والكساد !

وهنا رأينا « الريحانى » يشق ميداناً جديداً دفعته إليه يد القدر ، أو قل بصيرته النيرة التى فطنت إلى ما يعتلج فى نفسية الجمهور من

مطالب ومنازع . فظهر فى منظر مصرى على أحد مسارح الاستعراض... وكان ذلك المنظر ساذجاً فكهاً قوامه بعض الشخصيات المصرية الصميمة ، يحتشد فيه خليط من أغان شرقية وغير شرقية . . . وابتكر « الريحانى » لنفسه تلك الشخصية الطريفة ، شخصية « كشكش بك » العمدة السادر الطروب !

فما لبث هذا المنظر أن أخذ بألباب النظارة ، وانتزع منهم عصىّ الإعجاب . وكان فى ذلك ما أغرى « الريحانى » وصاحب مسرح الاستعراض بالتوسع فى المنظر ، والتفنن فيه ، وتعهده بألوان التجديد المرح ، وتغذيته بالأغانى الشعبية ، والمشاهد الراقصة ، حتى طغى المنظر على المسرح كله ، فأصبح رواية مستقلة تنفرد بالمسرح بطلها « كشكش بك » وقوامها الفكاهة والغناء والرقص .

وأحسسنا أن نواة الملهاة المصرية الصميمة قد أخذت تتخلق .

راع الجمهور أول ما راعه أن يشهد مواقف شعبية خالصة ، وشخصيات محلية واضحة ، منتزعة من صميم البيئة المصرية بلهجتها وعاداتها وما لها من طابع مخصوص فى معالجة الحياة ومعاناة العيش .

واستطاع « الريحانى » ببراعته الخلابة أن يجعل من « كشكش بك » شخصاً حيًّا يفرض وجوده فى محيط الناس ، فيألفونه ويستجيبون له ، ويتابعون حياته وما فيها من مغامرات طريفة تهدى إلى النفوس ضروباً من المتعة والسلوى !

ولعل استجابة الجمهور « لكشكشيات الريحانى » ترجع إلى أن الناس كانوا وهم يشهدون « كشكش بك» يحسون أنهم يحيون حياته المرحة الطروب ، ويتنفسون فى جوه الطليق ، فيجدون فى ذلك بعض التسرية والخلاص مما يجثم على صدورهم من أثقال الضوائق والأزمات والاضطهادات

وكان نجاح « الريحانى » حافزاً لغيره من رجال التمثيل على أن يقفوا أثره ويحاكوه فى ذلك اللون الطلى ، ولكنهم لم يوفقوا توفيقه ، ولم يستطيعوا متابعة السير كما استطاع . وإن كانت تلك المحاولات قد نبهت الأذهان إلى « الملهاة » المصرية والعمل على إقامة صرحها فى ميدان التمثيل . . .

وعرف « الريحانى » أن « كشكش باك » لا يمكن أن يكون خالداً ، فما ظفر بالخلود كائن حى ، فإن لم يتطور أو يتجدد حلت به الشيخوخة وأدركه البلى . . . ومن ثم رأينا « الريحانى » يساير الزمن رويداً فى مرونة وطواعية وتبصر ، وإذا هو يتخفف من مشاهد الاستعراض الغنائية الراقصة ، مقتحماً ميدان الملهاة بعناصرها المتماسكة .

وها هوذا اليوم تنتهى إليه بحق إمارة الملهاة فى الشرق العربى غير منازع !

ليس من دقة القول أن ندعى أن « الريحانى » بلغ الغاية التى إليها يتشوّف طلاب الفن الرفيع فى هذا اللون من المسرحيات المصرية الصميمة ، ولكنه يمضى فى الطريق موفور الجهد ، موفق الخطو . . . يقدم إلى جمهوره المولع بفنه لوناً من الملهاة المصرية حافلاً بالتسلية والإيناس ،

نابضاً بالحياة فى الأحداث والأشخاص ،عامراً بالنقدات اللاذعة للمجتمع والناس .

ولا ننسى أن موضوعات رواياته التى كتبها هو وشريكه الأستاذ « بديع خيرى » مقتبسة من أصول أجنبية ، غير أن طريقة « الريحانى » فى الاقتباس والإخراج خليقة بالحمد والإطراء .

فهو ينتزع الموضوع الأجنبى ، ويلقى به فى بوتقة فنه الخاص ، ثم يصهره ، ويصبه فى قالب جديد ، صميم فى مصريته ، صادق فى تعبيره . . .

فالاقتباس عنده نحو من الاستلهام والاستيحاء ، وقليلاً ما نحس بأن ثمة اتصالاً بين موضوع رواية « الريحانى » والموضوع الأصيل الذى كان مورداً للاقتباس .

ولا ريب أن تمصيره أقرب إلى التأليف منه إلى المحاكاة والتقليد .

استهل « الريحانى » عمله الفنى مصريـًّا شعبيـًّا غالياً فى شعبيته ، وأفضى به الأمر فى الموضوع والإخراج والتمثيل إلى مرتبة يأنس بها الخاصة ، ولا يرونها بمنأى عن مستواهم الفكرى . . .

أما تأديته لأدواره بوصفه ممثلاً ، فتلك هى بيت القصيد من فن « الريحانى » الظريف !

إنه إنسانى فى أدائه للمواقف ، ومجابهته للملابسات ، فتحس بأنه قطعة حية منتزعة من الواقع المشهود .

يسايرك بعد خروجك من المسرح ، كما عاش معك أثناء وجودك فيه، فليس هو تمثالاً خزفيًّا يتحرك على المسرح، بلولب مدار ، لا يلبث أن يسقط حطاماً حين ينزل الستار !

وربما كان توفيق « الريحانى » فى تأديته لأدواره يرجع إلى الملاءمة العجيبة بين شخصيته الواقعية وتلك الشخصيات التى يمثلها على منصة المسرح ، ولا يعيا « الريحانى » بأن يوفر لفنه تلك الملاءمة ، فهو يصوغ مسرحيته بنفسه ، ويشاطر فى تأليفها وحبكها وتصريف مواقفها وتدبيج حوارها طوع نزعته ووفق هواه .

وفى حسبانى أن نجاح الممثل فى أداء أدواره يرتكن فى الغالب من الأمر إلى أحد عاملين .

الأول : الملاءمة بين الشخصية الطبيعية له والشخصية الوهمية التى يؤديها .

والعامل الآخر : أن يكون الممثل فى واقع الحياة عاجزاً عن تحقيق شخصية معينة ، تواقاً إلى أن يكونها ، فإذا ما راح يمثلها وهماً على المسرح، برع فى تمثيلها ، تنفيساً عن حرمانه ، وإرواء لغليله ، فكأنه يحقق فى عالم الخيال ما تصبو إليه نفسه فى عالم الواقع المحسوس .

وقد ارتكن « الريحانى » فى توفيقه إلى العامل الأول ، وهو عامل الملاءمة . . .

ليس ثمة كبير فرق بين « الريحانى » الأريحى الوهاب المتلاف ،

ذى النزعة المرحة الضاحكة ، وبين « كشكش بك » فيما تجلى لنا على المسرح من مغامراته اللاهية .

« للريحانى » فى الحياة فلسفة تستند إلى دعامتين :

الأولى :

أنفق ما فى الجيب ، يأتك ما فى الغيب .

والأخرى :

تغد الدنيا قبل أن تتعشاك !

الشيخ أبو العيون

سمعت بالشيخ « أبى العيون » قبل أن أقرأ له، وقرأت له قبل أن أراه، فتمثل لى شرطيًّا أقتم عبوساً ممسكاً هراوة ضخمة، يطارد بها الرذائل ويطهر منها الأرض، فى قساوة وجراءة واقتحام . . . ولذلك كنت أستشعر له رهبة يخالطها توقير وإجلال .

وظللت أخشى أن تهيء لى المصادفات فرصة لقائه أو التحدث إليه، حتى لا أضيق بما يضيق به جليس المتزمتين الذين لا هم لهم إلا الإنحاء على الجلساء بالوعظ والإرشاد !

ولكن حدث بعد ذلك أن وصلت بينى وبين الرجل أسباب التعارف، فراعنى منه أول وهلة : وداعة فى الشمائل، ودماثة فى الخلق، وموفور من الكياسة والمرونة .

وتتابع لقائى إياه، فتطاير من مخيلتى شبح ذلك الشرطى الأقتم العبوس ذى الهراوة الضخمة، وحل محله ذلك الشيخ الكيس الذى أفعم ظرفاً ورقة حاشية، فعجبت لتلك المفارقة البالغة بين شخصية « أبى العيون » جليساً ومتحدثاً، وبين دعوته كاتباً، وصوته فى المكافحة والصيال .

وكدت أنكر عينى وسائر حواسى، واستهوانى الأمر، فعمدت إلى

استجلاء خوافيه . فانكشف لى السر المكنون ، ووضح لى أن إهاب الشيخ « أبي العيون » تنطوى فيه شخصيتان تكاد كل منهما تستقل بنفسها تمام الاستقلال .

عرفت أن الشرطى الأقتم العبوس ذا الهراوة الضخمة يؤدى عمله صادراً عن عقيدة وطيدة وعاطفة متضرمة ، فلا تصنع ثمة ولا دهان !

ولكنى عرفت كذلك أن السيد الكيس الأنيس. إنما يستمد أنسه وعذوبة شيمته من طوية نقية وشعور رهيف ، وذوق حضرى رفيع .

وإن هاتين الشخصيتين لتسيران معاً جنباً إلى جنب ، وربما طغت شخصية « السيد الكيس » على شخصية الشرطى ، فأنت تقرأ مقالات الشيخ العنيفة ، فتستشف تحت سطورها لطفاً وحناناً فى التعبير والتصوير ، لا تقتحم عينك كلمة عوراء ، أو جملة حوشية ، أو عبارة تتراءى فيها آثار الظفر والناب !

نجم الشيخ «أبو العيون» فى بيت دين وتقوى ، يسوده التحفظ والورع والأوضاع المأثورة فى العادات والأخلاق . . . بيت ارتدى بعض كبرائه جلباب الولاية ، وشاعت عنهم ضروب من الكرامات ، فاعتقدهم الناس ، وأقسموا بهم غير حانثين .

ومن ثم استقرت فى نفس الشيخ منذ نعومة أظفاره هذه النزعة الغلابة فى الذب عن محارم الدين وحياطة شعائره .

واستقبل « الأزهر » ذلك الفتى المتدين ، فاغتذت تلك النزعة بغذاء

آتاها النمو والزكاء .

وتنقل بعد ذلك فى وظائف التعليم ، تارة فى المدارس ، وتارة فى « الأزهر » ، حتى أدى به المطاف إلى « الإسكندرية » شيخاً لعلمائها ... ثم استرده « الأزهر » ثانية ليتولى فيه منصباً من عليا مناصبه .

وما برح فى كل تلك المراحل يتنفس فى أجواء دينية محافظة ، تظلها أسباب التزمت بالورع والتقوى .

ولكن — وفى « لكن » هذه سر الأسرار — حينما كان شيخنا رطب العود ، يرتشف من علوم « الأزهر » العربية ، أحس ميلاً فطريًّا إلى الأدب وما إليه من منظوم ومنثور ، وطرائف وأسمار ، وألفى نفسه يمنح وقته الأطول للمطالعات الأدبية فى دواوين الشعر وأسفار البيان ، فصفا ذوقه الفنى ، وشاعت الرقة فى شمائله ، وتجلت له مواهب حافلة ، فإذا قلمه يجرى على الصحائف بفاخر الكلام ، ولقيت مقالاته إقبالاً من القراء ، وتحية من النقاد ، لما آنسوه فيها من سلاسة أسلوب ، وحلاوة لفظ ، ونصاعة فكر .

فانتضى قلمه يواصل التدبيج ، وأصبح فى عداد الموسومين بالأدب من الكتاب ، أولئك الذين يحسنون الإبانة ، كما يحسنون تذوق البيان . . .

وشب شبابه مقبلاً على مجالس الأدباء وأندية الشعراء ، إذا سمع بأديب أو شاعر هرع إليه ، يتصل به ، ويساقيه الود . . .

وانفسح له مجال المطالعة والكتابة ، فأحس كما يحس كل أديب

صادق الموهبة ، بنزعة إلى الحرية والتنفس فى آفاق رحاب . . .

وهنا تجلت شخصيته الثانية ، وتم له تكوينها .

ومن ثم نشب ذلك الصراع بين نزعتين : نزعة التحفظ ، ونزعة التحرر ، أو — على الأصح — قام العراك بين عاطفتين : عاطفة الشيخ المتدين ، وعاطفة الأديب الفنان !

وكانت الوثبة الوطنية . . . فاتخذت من « الأزهر » مرتعها الخصيب ، وما كان للأزهرى البار سليل الشيوخ البررة أن يحجم عن الضرب فى الميدان ، فألفيناه سباقاً إلى الاقتحام ، وما لبث أن كان زعيما بين أقطاب الحركة ، ينفخ فى روحها بقلمه وصوته وسعيه ، مرخصاً فى سبيلها كل مجهود ، واقفاً بجانب الطليعة من القادة ، أمثال الشيخين « الزنكلونى » و « القاياتى » والقمص « سرجيوس » !

وفى هذا الجهاد الوطنى انفسح أمام الشيخ « أبى العيون » مجال العمل ، فخرج من تلك الدائرة الضيقة : دائرة التعليم والتدريس ، إلى دائرة فسيحة صاخبة قوية الصلات بالمجتمع المصرى وطوائف الناس فيه .

وما أسرع أن ظهرت للشيخ مواهب من المرونة والكياسة ، وحسن تصريف الأمور ، والتوفيق بين وجهات النظر فى مواقف حرجة ، ومآزق تزل فيها الأقدام . . .

خاض الشيخ هذه المعارك فى ميدان الجهاد الوطنى ، فكانت خير متنفس له عما يعتلج بين جنبيه من أحاسيس ومشاعر مكظومة مكبوتة

تضيق بها بيئة التحفظ ، ولا تتسع لها حلقة الدرس . . .

وأبلى فى عهد الثورة أحسن البلاء ، ولكن ما هى إلا أعوام ، حتى ألفى تلك الثورة التى كانت شعلة واحدة قد تفرقت شيعاً وأحزاباً ، فأحس مرارة الخيبة ، ولكنه استمسك بموقفه ، وصان مبدأه عن التنقل بين هؤلاء وهؤلاء .

ولم يكن بد من أن يبحث الشيخ عن متنفس لتلك المشاعر المحتدمة التى تأبى إلا الانبعاث .

ويوماً قرأ فى إحدى الصحف نبأ قسيس فى بلد أجنبى يرفع صوته مستنكراً قيام « البغاء » .

قسيس يناهض البغاء فى بلد أوربى ؟ !

وتلفت الشيخ حوله ، وهو فى بلد إسلامى صميم ، يتساءل :

أثمة شيخ يماثل هذا القسيس فى دعوته الصالحة ؟

وبلغ منه العجب كل مبلغ . . . كيف فات أهل الرأى ورجال الدين وولاة الأمور أن « مصر » المسلمة شعباً وحكومة ترخص رسمياً بمزاولة البغاء ، على حين أن الإسلام يستنكر الزنا ، ويحد له أقسى الحدود ؟

واهتز فى مجلسه اهتزازة عنيفة ، وأحس من قرارة نفسه صوتاً يعلو مهيباً به أن يهب ، مجاهداً فى سبيل الفضيلة .

أليس هو سليل الأولياء الصالحين ممن يقسم الناس بهم فى غير حنث ؟

أو ليس هو لذلك أحق من غيره برفع راية الحرب على البغاء ؟

إنه يتقد حمية ويقظة ، وإنه لقادر على أن يثير بقلمه رواقد الهمم ، ويبتعث غيرة الضمائر .

وتمثل له فى هذه اللحظة ما اضطلع به من جهد فى الثورة الوطنية ، إذ كان فيها لسان صدق ، وداعية حق .

كيف لا يستأنف جهاده فى هذا الميدان الدينى ؟

إن الخلق القويم والفضيلة الكاملة دعائم الأمم ، فلا قيامة لأمة تسرى فى كيانها الخلقى جراثيم الرذيلة

وجلس يكتب مقاله فى البغاء ، وأخذ يفكر فى عناصر موضوعه ؛ وراعه أنه لا يعلم من تفاصيله ما فيه غناء . . . ولكنه ألفى القلم يمضى وثاباً على القرطاس ، وإذا هو مهتاج النفس ، جياش العاطفة ، لا تعييه المعانى والأفكار .

ولما أتم المقال ، جلس يقرؤه لنفسه ، فعجب مما سطر . . . إنه حملة شعواء على البغاء ، وإنه ليعالج الموضوع بوحى من العاطفة والعقيدة أكثر مما يعالجه بأقيسة العقل والمنطق . . .

لم يكن فى هذا المقال إلا شاعراً مغرقاً فى الشاعرية !

وأرسل مقاله إلى « الأهرام » ، ووقف يحاور نفسه مبتسما :

أتلقى هذه الفورة العاطفية أذناً صاغية ؟ أم تذهب صيحة فى واد ؟

واطمأنت نفسه أخيراً بأنه مهما يكن من أمر المقالة وما يكون من

أثرها ، فقد أدى بها واجباً محتوماً ، ووضع بها عن ضميره عبئاً ثقيلا !
وتنفس أنفاس هدوء وارتياح .

كانت « مصر » يومئذ حديثة عهد بإعلان الاستقلال ، وقيام الدستور وبدء الحياة النيابية . . . كانت السجين الذى أفلت من محبسه ، وحطم أغلاله ، وانطلق فى أجواء حرية وتطلع ، تتضرم بين جنبيه رغبات وآمال ، وتتمثل لعينيه أخيلة المستقبل الجديد ، وما يكون فيه من إنشاء وتعمير . . .

كانت « مصر » آنئذ يتأجج فيها النشاط ، ويستبد بها النهم إلى الإصلاح والتجديد ! فلم يكن يفوتها أية دعوة أو نداء فيه صالح الوطن ونفع الأمة ، ولا سيما ما كان من هذه الدعوات والهتافات يهدف إلى تركيز القومية ، وإبراز الشخصية واضحة مستقلة خالصة من الشوائب . . .

فما إن سرت فى الجمهور مقالة الشيخ ، حتى أذن لها ، وتأثر بها ، وتحمس لفكرتها . . إنها صيحة يشنها الشيخ على الانحلال الخلقى الذى هو بلا ريب من مخلفات عهد الخضوع والخنوع . . . فكيف ترضى الأمة الحرة لنفسها أن يلحق بأذيالها هذا الوضر ؟ !

انهالت الرسائل على « الأهرام » تأييداً للفكرة ، أو بحثاً فيها ، وتعليقاً عليها . . . وشعرت «الأهرام» بأن قراءها يتقاضونها المزيد فى هذا الموضوع ، ففسحت صدرها للكتاب ، ورغبت إلى الشيخ فى أن يتابع صيحته ، وأن يكون على مرقبة من معقباتها بين الباحثين والنقاد .

وتذوق الشيخ لذة الظفر بأن صيحته لم تذهب بدداً ، وشمر للأمر ،

وأعد العدة لمواصلة البحث والدرس على أساس من حقائق العلم وظواهر الاجتماع . . .

فانبرى يتعمق فى الموضوع ، ويتعرف جوانبه ، ويسأل أهل الذكر ، ويستكنه أثر البغاء فى الصحة والاقتصاد وشتى النواحى النفسية والخلقية ، وكان كلما استوفى بحثه فى إحدى النقاط دبج مقاله فيه ، وانتقل إلى البحث فى نقطة أخرى ، والجمهور الظامئ ينهل من ذلك المعين ، لا يروى له غليل !

ما زال الشيخ يواصل حملاته ، حتى اجتذب إلى موضوعه آراء الخاصة وأهواء الناس ، فانتقل الموضوع من طور إلى طور ، وأصبح التفكير فى تنفيذه أقرب من المناقشة فيه ، وأخذ الشيخ على عاتقه مهمة الاتجاه العملى إلى إلغاء البغاء ، فمضى يطرق أبواب الحكام ، مثيراً غضبتهم للفضيلة ، مستحثاً إياهم على أن يقضوا على مذابح الأعراض !

واطمأن الشيخ أخيراً بأن إلغاء البغاء أضحى مشروعاً يأخذ دوره الحكومى فى التحقيق شيئاً بعد شىء . . . فأحس بأن واجبه نحو هذا الموضوع قد قارب التمام ، فعليه أن يتجه وجهة أخرى ليستأنف الجهاد فى ميدان جديد ، ذوداً عن حوض الفضيلة ، وإعلاء لكلمة الدين .

إن هذه النفس الثائرة لم تخب جذوتها ، فهى لا تفتأ تتساءل :

هل من سبيل إلى مزيد من وقود ؟

ولى الشيخ منصبه فى « الإسكندرية » كبيراً لعلمائها ، ولعل قدميه

قد مضتا به إلى الشاطئ بعد أن أدى فريضة الصبح يستروح نسيم البكور ، أو لعله خرج فى أحد الأصائل يتنزه بعد يوم عامر بألوان الشواغل والأعمال ، فما راعه إلا أن يرى ما يثير ثائرة الحليم ، ويهيج غيرة الشرقى الصميم !

لقد رأى النساء والرجال أخلاطاً أشباه عراة، لم يستروا من أجسادهم إلا أقلها ، فكأنما أخرجوا إلى الأرض ، كآدم وحواء ، إذ خرجا يخصفان عليهما من ورق الجنة !

تذمر الشيخ بادئ ذى بدء وتعوذ ، وانبرى يناجى نفسه :

أين الحياء ، وأين الصون ، وأين العفة ؟ !

واحتشدت بين جنبيه جموع التقاليد تهيب به أن ينهى عن هذا المنكر الذى لا صبر عليه لغيور !

ولكن أنسام البحر المنعشة تخطرت إليه تحاول أن تسكن من روعه ، وتهدئ من ثائرته . . . تخطرت إليه تحمل بين تضاعيفها أهازيج المرح وهتافات الشباب ويقظة الحياة . . . فجعل يجيل الطرف هنا وهنالك ، فوقعت عينه فى رحاب الشاطئ على ذلك اللوح الفنى المشرق من الوسامة والفتون !

تلك هى الدنيا ضاحكة من حوله . . . وهذه هى الطبيعة متبرجة مرحة كأنما تشرك الناس فيما هم فيه من متعة وائتناس . . . وذلك هو الجمال يفيض على الكون كله الخلابة والسحر !

وأحس شيطان الأديب الفنان بين جنبيه ينفض النوم عن جفنيه . . .
وألفى نفسه يهجس :
ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ! . . . للاستمتاع خلقت الجمال ، وللفن وهبت الحرية والانطلاق !
وإذا لسانه يترنم بنتف من الشعر فى التعبد بالجمال ، والتغنى بالحسن .

بيد أنه ما عتم أن أحس مارد التحفظ يشرئب من أعماق نفسه ، ويطلق زئيره المدوى . . . وسرعان ما اشتبك شيطان الفن ومارد التحفظ ، ودارت بينهما المعركة حامية الوطيس ، فاهتز جسمان الشيخ هزة عنيفة ، ففزع إلى داره نجاء بنفسه من حر هذا العراك ، ودخل الدار تنتظمه قشعريرة ، ولسان حاله يهتف بأهله :
أدركونى فإنى محموم !
ثاب الشيخ إلى هدوئه ، فعجب من نفسه : كيف بقى ساعة أسيراً لتلك الهواجس والنزعات ؟ إنها حقًّا خدعة شيطان رجيم !
وسرت فى جسمه رويداً روح الغيرة على الفضيلة ، فصيّح بملء فيه :
لا يكون لهذه الخزعبلات بقاء !
وما هى إلا أن انتفض الشيخ ناهضاً ، وتخير أصلب هراواته ، وشمر عن ساعد الضرب ، ومضى مهرولاً إلى الشاطئ شاهراً سلاحه العتى فى وجوه الغيد الأماليد من شبيهات حواء !

لم تكن صيحات الشيخ إلا ثورة من نفسه على نفسه ، وإلا حماية من نفسه لنفسه ، فهو ينادى قائلاً :

الفضيلة فى خطر !

وما هو فى الواقع إلا زاجر نزعة الفن والانطلاق فى نفسه ، خشية أن تعدو على حصن الفضيلة بين حناياه !

لم تكن هذه المعركة التى أجج الشيخ لظاها على شاطئ العراة إلا رغبة النفس فى أن تثبت أجلى إثبات أن الشيخ هو هو ، فرع تلك الأعراق الكرائم من الأبرار الصلحاء أولى الكرامات !

وكلما أحس الشيخ وهنا يسرب إليه من وليجة نفسه الفنانة ، رفع الصوت جهرة يستعصم به من ذلك الوهن ، ويستمسك إزاء تلك النزوات !..

اندفع الشيخ يجرى قلمه فى أنهار الصحف ، تنديداً بتلك المخازى التى تعمر بها شواطئ المصايف ، مستنهضاً العزائم والهمم لمكافحة العرى ، حتى اقترن اسمه بالشاطئ ، فأصبح عدوه الأول ، ولكنه العدو الشريف الظريف !

لا يفوت الشيخ أن الحياة تتطور ، وأن تصوير الفضيلة وتقدير الأخلاق يتحول بين عصر وعصر .

ولا مرية أنه لا يتوقع بهذه الصيحات أن يقضى على ما تموج به الحياة من تغير عقلى ونفسى ، فهو فى دخيلة نفسه يقنع بأن يكون هذا التطور منظماً يبرأ من طفرات التهور ومساوئ الإفراط . . .

إنه لأحكم عقلاً ، وأنور بصيرة من أن يطمع فى أن تنزل النساء إلى البحر ملففات فى الملاء والحبر . . .

ومن الطريف أن الغوانى يسمعن صوت الشيخ العاصف يملأ الأرجاء بالأصداء ، ويرين هراوته الصلبة تتطوح ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يأخذهن الفزع منه ، ولا يشعرن بحفيظة له ، بل إنهن ليدركن أن من وراء عنف الشيخ وشدة مراسه ، رقة جانب وإيناس طبع ، وأنه مع هذا التحفظ والتحنث يحمل بين جنبيه قلب شاعر وروح فنان !

عبقرية الشيخ تتمثل فيما استطاعه من أن يصب جام غضبه وثورته على الناس دون أن يستشعروا له مقتاً وكراهية ، بل لقد أنسوا به ، ومالوا إليه ، فكسب مودة الرجال والنساء على سواء ، وهو لذلك جدير أن يلقب بالمؤدِّب المحبوب !

أليس من المفارقة أن يكون الشيخ اسمه « أبو العيون » ثم يريدنا أن نغمض عيوننا عن بدائع الحسن وروائع الجمال ، كأنما يريد أن يستأثر وحده بالنظر والاستمتاع ، إذ يكون وحده حقًّا « أبا العيون » ؟ !

فكرى أباظه

محام نابه ، فى ميعة الشباب ، دائب الهمة ، لا يعرف غير الطريق بين بيته فى « القاهرة » ومكتبه فى « الزقازيق » . . . وإن بواكير نشاطه وعمله لتبشر بأن سيكون له فى عالم المحاماة شأن عظيم !

وما كان له وهو شاب متحمس يتوقد ذكاء وألمعية ألا يتابع النهضة الوطنية فى تقلباتها السياسية يوماً بعد يوم .

وبينما هو وراء مكتبه يوماً يتصفح إضمامة قضية من قضاياه ، إذا بنظراته تقع على إحدى الصحف السيارة ، فيقرأ فيها نبأ ارتحال المعتمد البريطانى حينئذ عن « مصر » . .

فوجد نفسه وقتاً ينسرح مفكراً فى هذا النبأ ، وما له من ذيول ولواحق ، فأخذت أنامله تجرى دون وعى منه على ورقة من أوراق مكتبه الخاصة بمذكرات الدفاع .

وانبرى يكتب فى حمية نادرة ، وسرعان ما اتسقت له سطور طوال...

وأخيراً رفع رأسه عن المكتب ، فرأى أن يراعته قد دبجت رسالة غريبة إلى ذلك المعتمد الراحل ، يشيعه فيها بكلمة طريفة تتميز بجسارة نفس ، ومهارة عرض ، وبلاغة حجة ، وسلاسة تعبير . . . وهى فوق

ذلك كله فكهة الروح ، حلوة الدعابة ، لينة الملمس !

فدهش الكاتب بما كتب ، وساورته الحيرة ، فراح يسائل نفسه :

أبقامه حقاً كتب هذه السطور ؟ وفيم فعل ؟ وماذا ينتوى من وراء هذا الصنيع ؟

وانطلق يضحك ويغرب فى الضحاك ، فما أسرع أن بدت له فتاة مكتبه الحسناء ، وعينها تلتمع حيوية وفطنة . . .

بيد أن الشاب استرسل فى قهقهته ، وقال يسد فضول الفتاة المتسائلة :

إنى أضحك من عبث طفولة كان منى !

وتراجعت « السكرتيرة » إلى مستقرها ، وألقى المحامى الشاب بالورقة جانباً ، واستأنف درس قضاياه ، حتى فرغ منها ، فغادر المكتب كشأنه كل يوم . لا يشغله شىء من أمر تلك الرسالة التى جرى بها قلمه منذ حين . . .

وأقبلت الفتاة على مكتب المحامى ، ترتب أضاميمه ومحتوياته ، فلم تكد تعثر على تلك الورقة حتى انكبت عليها تقرؤها ، وألفت نفسها تتصايح ، وهى ترجع الضحكات اللطاف !

فأسرع إليها خادم المكتب ، يتبين جلية الأمر ، فعاجلته بقولها :

إنى أضحك من عبث طفولة حمقاء !

فارتد الخادم إلى الباب ، ووقفت الفتاة تردد النظر فى المقال ، فعنت لها فكرة ساورتها حيناً ، ثم ضربت جبهتها بكفها ، وهمهمت :

لم لا يكون ذلك ؟ من لم يخاطر لم يفعل شيئاً !

وتقضت أيام تابع فيها المحامى الشاب عمله ، كمألوف عادته ، يستغرق فكره ما بين يديه من ركام القضايا والخصومات .

وفى صبح يوم جعل يعبر بعينه صحيفة « الأهرام » فراعه أن الرسالة التى كتبها إلى المعتمد البريطانى بأسلوب ساخر ، تحتل من الصحيفة أبرز مكان !

ففغر فاه من دهشة وتعجب ، وأنكر ما ترى عينه ، وجعل يتشكك ويتثبت ، وانتهى به الأمر إلى يقين بأن الرسالة هى رسالته التى دبجها قبل أيام . . . وها هوذا اسمه قد كشف للملإ عن سره المستور !

وتلفت يمنة ويسرة ، وقد أحس بأن عيون الناس تقتحمه وتتفحصه ، وتهم بأن تناقشه فى ذلك العبث الذى جرى به قلمه . . . فرمى بالصحيفة ، وانطلق إلى داره هرباً ، وأزمع أن يحتبس فيها أياماً متمارضاً ، ليحتجب عن أعين الناس ، حتى عن أعين الأطباء !

إنه ليخشى أن تؤذى سمعه كلمات الهمز واللمز ، أو أن يتعقبه الشرطيون من رقباء الأمن وحماة النظام !

وبعد أن قضى فترة فى محبسه ، وخف عن كاهله ذلك الكابوس ، خرج إلى مكتبه حذراً يترقب ، وقد كسا وجهه شحوب . . . وما برح يفكر ويتساءل :

أى شيطان أبلغ « الأهرام » رسالته ؟

ودار بأسئلته بين أعوان مكتبه ، يتقصى ويتعرف ، وهو ثائر محنق ، فلم يهتد إلى جواب يشفى الغليل .

وما إن جلس إلى المكتب يرغب فى استئناف الدرس والإعداد لإضمامات القضايا ، حتى طالعته رزمة من رسائل وبرقيات مضى يفكها فإذا هى تحفل بتحيات وتهانئ على المقال الذى أطرف به القراء ، ذلك الذى سماه : « عبث أطفال » !

وانصرم الوقت ، وهو يعرض هذه الرسائل ، تزيغ عيناه بين ركامها ...

وأنهى إليه الخادم أن زواراً ينتظرون إذنه ، فنهض إليهم ، وقد قر فى ذهنه أنهم من عملاء مكتبه ، وطلاب توكيله .

وما كاد يلقاهم محيياً محتفياً ، حتى استبان له أنهم « رسائل حية » قدمت تزجى إليه جديداً من تهانئ وتحيات !

وترادفت عليه أيام ، وهو بين مصدق ومكذب لهذه الحال الطارئة التى غشيته .

وبعد حين ألفى نفسه وقد استيقظت بين جنبيه تلك الرغبة الكمينة فى أن يدبج سطوراً من ذلك البيان الساحر ، على نمط رسالته إلى معتمد الإنجليز .

ويوماً جلس يكتب مقاله الثانى ، وما كاد يفرغ منه ، حتى أقبلت عليه فتاة المكتب فى تردد وإحجام ، وهى خافضة البصر ، تفرك إحدى يديها بالأخرى ، فرفع إليها هامته قائلاً :

ما بلك ؟

فقالت متلعثمة :

ضاق بالسر صدرى . . . إنى لمفضية به إليك . وليكن حكمك ما تشاء .

فلمعت عيناه تطلعاً وحيرة ، وسأل :

أى سر تعنين ؟

فقالت فى لهجة استغفار وندم :

سر المقال . . . أنا التى بعثت به إلى « الأهرام » . . . ثق أن نيتى كانت بيضاء !

فأخذ الشاب يعبث بالقلم بين أنامله ، وهو ينظر إليها بسام الثغر ، ثم قال لها هادئ الصوت :

لا عليك !

ومد إليها يده بالمقال الجديد ، قائلاً :

افعلى به ما فعلت بسابقه . . . إنى بك متيمن مستبشر !

وسارت به الأيام ، تتوارد عليه الصحف ، حاملة له بين صفحاتها فيض قريحته فى هالة من الحفاوة والإعجاب .

فأحس الرضا عن نفسه ، وعن فتاة مكتبه الحسناء ، ولم يعد يرى فيما يثنى به الناس عليه إسرافاً أو مغالاة .

واطمأن أخيراً إلى أن الأقدار قد اصطفته لتلقى به فى ذلك الحشد من

أدباء الصحافة وحملة الأقلام . . .

وعلى مر الأيام تخلق فى مكتب المحاماة مكتب آخر ، جعل ينمو ويتسع ، حاملاً رسالة الصحفى وقلم الأديب !

وأصبح لذلك الشاب النابه حياتان ، تتقاسمان نشاطه ، وتتنافسان فى اجتذابه ، فنظر إليهما نظرة الزوج إلى ضرتين حسناوين ، ليس له إلى التخلى عن إحداهما سبيل .

ولم يملك إلا أن يقول لهما مبتسماً :

إنى بين أيديكما . . . فاصنعا بى ما تريدان !

إن الله لأكرم من أن يدع « فكرى » للمحاماة وحدها . . .

بين ظهرانينا عشرات من « فكرى » المحامى ، ولكن ليس لنا من « فكرى » أديب الصحافة الفنان إلا رجل فرد !

أفليس من الظلم أن تأسره المحاماة ، فتحرمنا ذلك الأسلوب الطلى الذى جلاه صاحبه وأبدع فيه كل الإبداع ؟ !

وربما كان من الدقة أن نشير إلى أن هذا الأسلوب ظهرت لوامعه بادئ بدء فى مقالات كانت تحمل اسم « الغزالى أباظة » ولعل معالى الأستاذ « إبراهيم دسوقى أباظة باشا » أدرى الناس بصاحب ذلك الإمضاء !

فهذا الأسلوب وليد البيت الأباظى ، تعهده « فكرى » وخلص له ، وتفنن فيه حتى بلغ هذا المبلغ من الروعة والإمتاع .

مزية هذا الأسلوب هى المرونة والطواعية للتعبير عن دقائق الحياة

الاجتماعية والعراك السياسى فى شتى النواحى والأوضاع .

تعبير كأنه حديث عذب ، يصغى إليه السامع ، فكأنما يترشف من شراب منعش ، لا يفضى إلى سكر ، بل يشيع فى النفس لطائف النشوة والمراح . . .

تعبير الطبيب البارع حين يؤلف بين العقاقير الناجعة والشراب الحلو ، فيخرج منها مزاجاً يجمع بين الفائدة وطيب المذاق .

تعبير تتجلى فيه أشتات من المزايا :

عفة فى اللفظ ، فلا موضع لكلمة نابية ، وسخرية فى النقد لا يترك موضعها جرحاً يدمى ، وجرأة فى الحق تبعثها الصراحة والغيرة ويقظة الضمير .

إن « فكرى » ليغضب أحياناً غضبة النمر ، وقد يرفع كفه ليصفع بها الصفعة القاضية ، ولكن سرعان ما تحول الصفعة فى يده مزحة ودعابة تؤلم ، ولكنها لا تثير الحفيظة ولا تهيج الغيظ .

لسنا نتزيد فى القول ، إذ نصف أسلوب « فكرى » بأنه « الأسلوب الدبلوماسى » . وإنه ليمثل فى الصحافة ذلك السفير اللبق الذى يحقق أغراض دولته ويرعى مصالحها . دون أن ينتضى سيفاً أو يصوب مدفعاً ... وإنما يبلغ أهدافه بأفانين من مهارة فى الحديث ، ولباقة فى تصريف الكلام !

ولا ريب أن أسلوب « فكرى » قد أثار فى أذهان جمهرة من كتاب الصحافة التطلع إلى أساليب جديدة من التعبير الشائق الخلاب ، فإليه

فضل السبق والإثارة فيما يتجلى فى الأسلوب الصحفى على وجه عام من طراوة ولباقة وتجديد فى الوصف والعرض والتعليق . . .

سلم « فكرى » من آفتين :
آفة المناصب الحكومية .
وآفة الخصومات الحزبية .

وقد وفرت له سلامته من الآفة الأولى حرية فى النظر والوزن والتقدير ، ووفرت له سلامته من الآفة الأخرى جسارة على مواجهة الزعماء جميعاً بما يؤمن به ، دون تقيد أو مصانعة أو خشية ملام .

لقد تسنم « فكرى » تلك المكانة بين حاشية صاحبة الجلالة الصحافة، ولم يجحد ما كان من صنيع فتاة مكتبه يوم أفلحت فى التجسس عليه ، وجرؤت على أن تقوم بمهمتها خير قيام ، إذ استطاعت أن تمهد طريقه الصحفى فى خطوته الأولى . فها هى ذى الآن بجانبه تشاركه فيما يعمل . . . ولفرط اعتزازه بها ألزمها أن تخفى وجهها الصبيح تحت قناع من أقنعة التنكر ، فلا يعرف الناس منها إلا اسم : « الجاسوسة الحسناء » !

بشر فارس

تلقيت يوماً دعوة من إحدى الهيئات العلمية ، ولا أدرى متى جرى ذلك على وجه التحقيق ، وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحاثة معروف ، سمعت به ، ولكنى لم أره بعد .

فذهبت وقد تخيلت لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته ... رجلاً أشرف على الخمسين ، بشارب مهدل ، وعينين مجهودتين ، وصوت متأكل . فما كدت أستقر فى مكانى من القاعة ، وأرفع بصرى إلى المحاضر ، وقد اعتلى منصة الخطابة ، وبدأ يلقى محاضرته ، حتى طالعتنى صورة أدهشتنى جد الدهشة . رأيتنى أمام فتى كله شباب وحيوية ، بعينين تلمعان ذكاء : له وجه صبيح ، بشارب طرير مشذب على الطريقة الفرنسية ، وقوام إغريقى يذكرنا بتماثيل « براكسيتيل » !

فتشككت فى الأمر ، وحسبت أنه قد جد تغيير فى المحاضرة والمحاضر ، وانحنيت على صديق بجوارى أتبين منه حقيقة الحال ، فأكد لى أن المتكلم هو الدكتور « بشر فارس » نفسه !

ورحت أستمع ، فإذا بالمحاضر يلقى بحثه بصوت جميل النبرات ، فى لهجة فصيحة ، تتوضح فيها دقة الأداء ، وحسن الاختيار لمواقف الجمل ،

والحرص على سلامة مخارج الحروف . كل ذلك فى اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها فى اللحن الفنى البارع !

واتسعت مسالك البحث وتشعبت ، بيد أن المحاضر كان قابضاً على زمام موضوعه قبضة جبار ، يديره فى حنكة ، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العباب الصاخب . . . حتى انتهى به أخيراً إلى شاطئ السلام !

* * *

منذ ذلك اليوم عرفت الدكتور « بشر فارس » ، وما أسرع أن توثقت صلاتى به . . فتجلت لى فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الودود المرح ، فالابتسامة اللطيفة التى طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره ، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة فى سماء مجالسه . وقد يمضى فى حديثه الطريف ، فلا يكاد يروى لك أخباره عن « باريس » ، وما شاهده فى دور العلم بها ، وما لقيه فى مغانى عبثها ولهوها ، حتى ينتقل بك إلى قهوة « الفيشاوى » ومطعم « الحلوجى » ، فيحدثك عن الشاى الأخضر ، وصحاف « الطعمية » الفاخرة تحيط بها أصناف المشهيات . . ومن ثم يختفى أمامك العالم الجهبذ ، ليحل مكانه « ابن البلد » الوجيه العريق فى المصرية ، فلا يعوزه إلا « اللاثة » يديرها على رأسه ، فينطلق فى مسارح « سيدنا الحسين » يلوح فى يمينه بعصا « الفتوة » !

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور « بشر » تريح الأعصاب وتملأ

القلب من إيناس ، وتحول نظر المرء إلى الناحية الرفافة الجميلة في الحياة .

* * *

صاحبنا الدكتور « بشر » وقتاً ، ثم طلبناه حيناً فلم نجده فكأنه « فص ملح وذاب » كما يقولون . . ثم عاد إلى الظهور ، ولكن فى فترات متقطعة نادرة . كنا نراه اتفاقاً فى الطريق مهرولاً لا يقر له قرار ، وهو محاط بشرذمة من النجارين والحدادين والطلائين ، فإذا ما استوقفناه ، فسألناه عن سبب غيبته ، أشار إلى مرافقيه ، وقال ، وهو يتأفف فى لهفة المكدود : ألا ترون أنى مشغول ؟ ويتابع سيره فى عجلة واهتمام ، وقد اشتبك مع صنّاعه فى مناقشة حادة ، فلا نشك لحظة فى أنه ودع العلم والأدب ، والتحق بزمرة « المقاولين » !

وبينما كنا فى مجلس نذكر صديقنا « بشرا » بالخير ، ونأسف لتوديعه الأدب ، إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد فى « جاردن سيتى » ، فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا فى متحف فنى ، كل ما فيه يشف عن ذوق سليم غاية فى السمو .

وجعل صاحب الدار يمر بنا فى مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز ، ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة طريفة محلاة بإمضاء فنان ، وهنالك صحفة من الفن الصينى الثمين يرجع تاريخ صنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعداً لطيفاً على شكل رحل من رحال الجمال . وفى ركن

من أركان الغرفة يقوم ذلك الرف الساذج البديع يحتضن « تاييس » و« مدام بوفارى » و « أفروديت » وهن فى أثوابهن الغالية الفاتنة !

ففطنا بعد لأى إلى سر غيبة الصديق ، وطفقنا نطوف معه ذلك « المزار » المبتكر . . . حيث يعبق فى جوه عطر الفن وتشمله روح الجمال !

طابع الفن والجمال يسم حياة الدكتور « بشر » بأكملها . . يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه ، فإذا ما قرأت له مقالاً رأيته ألبس الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظاً ينتقيها فى حكمة ، وينسقها فى صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العقد على صدر الحسناء !

فإذا لقيت شخصه ، ألفيت أمامك شاباً أنيقاً يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحلة ، ليخرج منها صورة فنية طريفة .

ولصديق « بشر » شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم، تتنازعانه على الدوام . . . ولا ندرى أيتهما يقدر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر فى عام مضى مسرحيته الرمزية « مفرق الطريق » . فتلألأت نجماً جديداً فى سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ فترة كتابه : « مباحث عربية » ؛ فإذا هو سفر قد لا نغالى إذا قلنا إنه فى طليعة الآثار العلمية التى تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة فى التنسيق والتنميق . كل ذلك على نهج علمى خطه علماء الاستشراق .

ونحن اليوم نتتبع خطوات « بشر فارس » وهو يروح ويغدو ، ينحت الصخر آناً فى مفاوز العلم ، وينظم الزهر حيناً فى خمائل الأدب ، ونتساءل فى حيرة : إلى أى مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين ؟ وهل فى الإمكان أن يجمع المرء بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر فى دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين ، اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضع أحدهما زميله واستعبده ؟ !

* * *

وللدكتور « بشر » نواح خفية ، لا يعرفها إلا أصدقاؤه الخلصاء ، وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله .. . فقد يحاسبنى على إفشائها حساباً عسيراً !

إن صديقى « بشرا » — ولنخفض أصواتنا قليلاً — رجل ذواقة فى المآكل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة بكل ما تزدان به الموائد . . . وإنها لمتعة حقًّا حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ، يروى لك — وعيناه تلمعان لمعان المرق الشهى — كيف يشترى بنفسه الزبد الطازج ، وينتقى عند الجزار مطايب اللحم ، وكيف يقف أمام الفرن يجهز الصنف الذى يحب ، ثم لا يلبث أن يأتى عليه ولما يتم نضجه على النار ، مقتفياً أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا « بشر » جولات موفقة فى مطاعم المدينة ، فهو إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يعنى بمكانه من المائدة ، بل يطلب أن يدلوه

فوراً على المطبخ . وثَـمَّ يكشف عن القدور يتفحصها تفحص عارف، ثم يشير أخيراً إلى واحد منها . فيحضرونها له بأكملها . . . ويشمر الدكتور عن ساعد الجوع غير معنى وقتئذ بأناقته ، وينكب على القدر ، فيأتى — فى لحظة خاطفة — على ما تعب الطاهى فى صنعه ساعات طويلة !

زكي طليمات

منذ خمسين سنة ونيف ، سجّل أصيل يوم من أيام الصيف ، باكورة لقائى لصديقى « طليمات » .

وأرجو ألا يعجل صديقى بالإنكار علىّ فى عدد هذه السنين ، فإن هذا اعتراف منى يلزمنى ويعفيه من الإلزام ، وإنه لطليق من تبعاته ما وسعه جهد الشباب !

كنت إذ ذاك فى مؤتنف الصبا ، أسكن بيتنا العتيق فى حى « درب سعادة » ، وكانت حجرتى تشرف على حديقة البيت التى تتكاثف خمائلها ، وتتضايق مسالكها ، فتريك الغابة فى صورة مصغرة .

وبينما أنا أطل ساعة من النافذة ، إذ لمحت غلاماً يشهر فى يمينه مدية يبرق حدها تحت شعاع الشمس ، وهو يعدو خلف صبي البستانى ، يحاول اللحاق به ، فلما أدركه سلط المدية عليه يريد إعمالها فى رقبته ، فبادر بعض خدم البيت إليهما ، وحالوا بينهما قبل أن يسبق السيف العذل !

وبعد ساعة أو بعض ساعة ، دعيت إلى لقاء زائرة من كرائم السيدات ، فلما خففت إليها قدمت إلىّ صبياً ما كدت أراه حتى تبينت

أنه هو صاحب المدية ، وبطل موقعة البستان !

فاستشعرت الخشية منه ، وتباطأت عن تحيته ، ولكنه أسرع يجذبنى ، فنزلنا إلى الحديقة نلعب معاً .

ومرت لحظات فى صحبة هذا الرفيق الجديد ، ملأتنى أنساً به ، وتطلعاً إليه ، فقد هز سمعى بحديثه العامر بالطرائف والأعاجيب . ولكن منظر المدية ، وهى تشرئب من جيبه ، كان يعكر علىّ طمأنينتى إليه ، وجعلت أستدرجه فى الحديث مترفقاً ، لأتعرف سر حملته على صبى البستانى ، فأنحى علىّ ذلك الصبى يصف غلظته وتوقحه ، وينعى عليه وقوفه فى طريقه . إذ منعه من تسلق الشجر ، وانتزاع شىء من أغصانه .

وانبرى رفيقى يقول ، وقد استل المدية من جيبه :

لولا ازدحام الناس علىّ ، ومنعهم إياى ، لرويت أرض البستان بدم ذلك الغر المأفون !

وثارت بى مشاعر مختلفة ، ساقت يدى إلى تلك المدية فى محاذرة واحتراس ، فما إن قلبتها ظهراً وبطناً حتى استبان لى أنها سكين من صفيح يتثنى مع الريح !

ومال علىّ الرفيق يقول فى زهو ومرح :

لو زرت بيتى لأريتك ما أملك من عدة الحرب والضرب ، وأدوات الطعن والفتك !

وتابع خطواته معى ، وهو يبسط لى أنباء مغامراته التى يستخدم فيها

تلك العدة وهذه الأدوات ، مطنباً فى الوصف ، مسترسلاً فى الحديث ...

وذهبت إليه فى منزله يوماً ، مصحوباً بشقيقى الكبيرين ، فتبينت صدقه فيما كان يخبرنى به ، إذ بهر عينى ما عرضه علينا من عتاد حربى : خناجر وأسياف ، بنادق وقذائف ، ولكنه عتاد زائف من رميم وحطام !

كذلك كانت فاتحة التعارف بينى وبين صديقى « طلمات » . . .

ومنذ هذا الحين ، تواصلت بيننا المودة فى ركب الأيام .

وكلما تعاقبت علينا العهود تكشفت لى جوانب من تلك الشخصية الزاخرة بالطريف العجيب من شمائل وملكات . . .

ولا منجاة لى من الإقرار بأن صديقى « طلمات » إذا ضاق اليوم ذرعاً بأثقال التمثيل ، فإنى عن بعض ذلك مسئول ، وعلىّ من التبعة نصيب غير منكور .

لقد كنت أنا وشقيقاى ، نأنس بدعوته إلى مشاهدة المسرحيات فى فرقة « إسكندر فرح » وفرقة « سلامة حجازى » نطاوع بذلك ميلنا لهذا الفن الجميل ، ونجارى طموحنا إلى التزود منه ، والاستمتاع به . وعلى مر الأيام توثق هوانا له ، وبلغ بنا التعلق به كل مبلغ ، حتى جعلنا من أشخاصنا أبطال تأليف وتمثيل ، ومن أبهاء دارنا مسارح ، ومن ملاءات الأسرّة ومفارشها أستاراً ومناظر ، ومن أهل الدار وحاشيتها وزوارها جمهوراً يشهد ما نقدم من مسرحيات .

وكان أكبر الظن أن تخبو تلك الجذوة الصبيانية بانقضاء عهد الحداثة وأن تنطوى تلك الألاعيب باستقبالنا جد الحياة فى عنفوان الشباب .

ولكن الأقدار دبرت لنا حادثاً كان له كبير أثر فى حياتى وفى حياة صديقى « طلبات » . . . ذلك أن شقيقى الأوسط « محمد تيمور » رحل إلى « باريس » يستكمل دراسته العليا ، حاملاً معه قبساً من تلك الجذوة التى تلهبه شوقاً إلى فن التمثيل ، فبقى ثلاثة أعوام يتنقل فى مجالى الفن ، ويغترف من مناهله ، مطلقاً لنفسه العنان .

وعاد أدراجه إلى ربوع الوطن ، يقص علينا روائع ما شهد ، ويتحدث عن الفن الأوربى حديث دراسة وشرح وتحليل . تشيع فى لهجته حماسة فى الوصف ، ونشوة فى العرض ، وحمية تفصح حرارتها عن فورة إحساس ، وصدق إيمان . . .

وأبى « محمد » إلا أن يشرع الطريق ، ويشق الأفق ، فاقتحم الغمار بنفسه مؤلفاً وممثلاً ومرشداً على وجه عام . . . وكنا — أنا و « طلبات » — من ورائه ، نقفو خطاه ، ونسير فى ركبه ، يحدونا تطلع وإعجاب .

وكان شقيقى كلما ضرب فى لجة الفن ضربة ، اهتز صديقى «طلبات» هزة . . . حتى حان الوقت الذى فقد فيه الصديق توازنه ، فطرح عنه أغلال التقاليد ، تذيبه حمّى التمثيل ، وقطع دراسته العليا ، ليلحق بإحدى الفرق التمثيلية القائمة فى تلك الأيام .

ومن ثم بدأ « طلبات » عهداً جديداً فى حياته ، ما زال يواصل

تجديده وتنميته ، وها هوذا اليوم يتمتع فيه بالصيت الطائر ، والمجد الزاهر . ولكنى على الرغم من ذلك لا أدرى ، ولا يدرى هو نفسه الآن : أكان مخطئاً فى إقباله يومئذ على ذلك العهد الفنى ؟ أم كان على صواب ؟

لم يكن التمثيل فى تلك الحقبة إلا مجالدة صعاب ، واقتحام عقبات ، واحتمال مكاره ، دون أن يكون من وراء ذلك كله مغنم يذكر ، أو جاه يشار إليه بالبنان . . .

بيد أن صديقنا « طلمات » ظل يطاول ويصابر ، حتى أشرف على نهاية لم يأمن فيها على نفسه ، فآثر أن يعتزل هذا الجهاد العقيم، ضنًّا بوقت يضيع ، وشباب يذهب هباء .

دخل الشاب ميدان العمل الحكومى ، موظفاً فى « حديقة الحيوان » وأخذ يرقب الفرص ، ويرصد الأحداث ، وهو لا ينفك مفكراً فى ميله الفنى ، طلاعاً إلى فرج قريب .

وفى أرجاء تلك الحديقة الرحيبة كان أخونا « طلمات » يجول وحده ، مطلقاً لخياله أجنحة خفاقة ، واجداً لفكره مسرحاً بعيد المدى .

كانت هذه الفترة من حياته فترة تأمل عميق ، وفرصة دراسة واطلاع ، ولقد أفاد من هذه الأيام الهادئة فائدة صاحبته ثمارها فى مختلف مراحل حياته من بعد .

ولا مرية فى أنه قد لقى فى عشرة الحيوان الطيب البرىء ، من الصفاء والطمأنينة ، ما نفس عنه كربته التى عاناها فى صحبته مع الإنسان !

بضعة أعوام قضاها صامتاً ساكن الطائر ، يرتق من أعصابه ما تفتق ، ويأسو من جراح قلبه ما كان دامياً .

ولكن هل يستطيع ذلك الشاب الثائر الطموح أن يخلد إلى دعة وسكينة ، وأن يأنس بالهدوء والركون ، إلا بمقدار ما تندمل جراحه ، وتتجدد قواه ، ويرجع إليه موفور العزم والإقدام ؟

أو قادر هو على أن يبقى فى « حديقة الحيوان » حبيساً يقنع بعشرة العجماوات الطيبة ، مكفولاً له رزقه فى رغد وأمان ؟

حتى متى يغالب نزعة الفن الفوارة بين حناياه ؟

لاح له بغتة فى الأفق نجم يلتمع . . .

أنجم سعد هو ، فيتفاءل به ويستبشر ؟

لم يكن ذلك النجم الطالع إلا مباراة عقدتها الحكومة تشجيعاً للتمثيل ، وتقديراً لعشاقه ، فدخل « طليمات » هذه المباراة فيمن دخل ، وخرج منها حاملاً قصب السبق . فما هى إلا أن شخص إلى « باريس » مبعوثاً رسمياً للتخصص فى دراسة فن التمثيل ، والتمرس به .

هذا طور جديد من أطوار حياة الصديق . . .

إنه طور حاسم تقرر به مصيره ، فليتقدم فيه ، مؤمناً بأنه لا محيد عنه من بعد ولا نكوص .

سنون قضاها « طليمات » فى معهد الفن العتيد ، وفى ربوعه الأصيلة ، فلبث هنالك للفن ربيباً ، يمرح فى أحضانه ، ويغتذى بلبانه .

ظل « طليمات » فى « باريس » هيمان عطشان ؛ ينهل من الدراسة الفنية المنظمة فى مختلف مناحى التمثيل ، ورجع إلى وطنه وقد اختمرت خبرته بالفن ، واستوى نموذجاً جديداً للفنان العليم ، تعتلج بين جنبات نفسه مطامح وآمال وأهداف .

واندفع الرجل فى غمار حياته الجديدة ، مشرفاً على شئون التمثيل فى الدولة ، يحاول أن يبنى ، وأن يقيم صروحاً ويشق آفاقاً ، فكانت تعلو به الحياة وتهبط ، وتعبث به الرياح أحياناً يمنة ويسرة ، إلا أنه ما فترت له همة ، ولا أدركه كلال ، فاستطاع بعد لأى أن يصل ، وأن يشرف من بنائه العالى إشراف منتصر غلاب !

برهن « طليمات » على أنه ممثل راسخ القدم ، وأنه مخرج فى الطليعة ، يساير التطور ، ويقتبس الطريف ، وأنه أستاذ أصيل يطبع جيلاً بطابعه الجديد ، جيلاً من شباب الفن على نهج قويم . . . وها هوذا معهد التمثيل — غرس يديه ، وثمرة جهاده — كأنما هو إذاعة موصولة تتغنى باسم « طليمات » !

هل لنا أن نتساءل اليوم :

أى باعث نفسى كمين هتف بذلك الفنان ليؤدى رسالته فى الحياة ؟

إن المستبطن لخفايا هذه النفس ليرى لزاماً عليه أن يجاهر بأن ذلك الباعث القوى لم يكن إلا الشعور بالنقص .

وإن هذا الشعور لخلة عجيبة تتدسس إلى كبار النفوس ، فتعمل فيها عمل السحر . . .

هذه الخلة التي توصف بالنقص ليست إلا وسيلة إلى الكمال !

لا عظيم فى منحى من مناحى العظمة إلا يدين لهذه الخلة بما توافر له من تبريز واستعلاء . . .

ترى أى نقص ذلك الذى أحس به الناشئ الموهوب « طلبات » فعمل فى نفسه ، وحفزه إلى أن يستكمل ما فات ، ويتعوّض مما خسر .

نشأ الصبي فى بيت نعمة ، يتقلب فى أعطاف رفاهة ، حتى ألف الحفاوة والإعزاز ، ولكن حوادث الدهر مكرت به ، وبيتت له غدرة عصفت بذلك التنعم واليسار ، فألفى نفسه يواجه حياة تتنكر له ، وتريده على غير ما تعود ، وتلزمه التعويل على جهده فى أمره ، فانطوت نفسه على رغبة فى التعويض ، هى رغبة الظهور ، هى الطموح إلى أن تحدق به أنظار التقدير والإعجاب .

ولقد باكرته تلك النزعة فى عنفوان صباه ، فلم تجد لها متنفساً إلا فى ضروب من المعابثات والمشاكسات عليها سمات المغامرة والبطولة ، وفيها دلائل الجرأة والتهور . وإنه ليطاوع تلك النزعة الناجمة ، فيصطنع من الوسائل والأسباب ما يرضى به نفسه الجياشة .

وليس أدل على ذلك من حرصه على اتخاذ الصفائح سيوفاً ورماحاً لمحاربة ونزال ، وليست مشاكسته لصبي البستانى التى روينا قصتها فى

مطلع هذه الكلمة إلا قطرة من ينبوع تلك النفس النزاعة إلى غلبة وسلطان !

ولما شب « طليمات » أنس بميدان التمثيل ، إذ لقى فى رحابه معواناً على الظهور ، واجتذاب الأنظار ، واستدرار الإعجاب ، فما لبث أن تعلق به ، واندمج فيه ، وجند له مواهبه ، ولم يهدأ له بال حتى أصبح من قادته الأكفاء .

أمر عجيب فى حياة « طليمات » الفنية ، كان موضع ملاحظة وتساؤل ، ذلك أنه يبلغ القمة حين يقوم بتمثيل أدوار الأشرار . . .

فهل هناك صلة بين طبيعة الفنان ، وبين قدرته على التعبير ، فإذا كان شريراً استطاع أن يعبر عن الشر التعبير الأقوى ، وإذا كان طيب النفس استطاع أن يمثل الطيبة فيما ينهض به من فنه ؟ الجواب عن هذا السؤال فى نظرى هو أن الفنان دائماً يجيد التعبير فى الناحية التى تعوزه فى طبيعته الكامنة ، فإذا كان يائس النفس غلبت عليه فى فنه رغبة المرح واللهو ، وإن كان ضحوك السن ممراحاً لم يعجزه أن يعبر فى فنه عن الجد وتمثيل الشعور الحزين . وقس على ذلك تشدق الجبان بالشجاعة ، والمتلاف بالحرص ، والعاجز ببعد الهمة . وقد وجدنا أمثلة ذلك فى الشعراء . فهذا « جرير » الذى لم تكن له بالمرأة مواصلة ومغامرة ، كان أرق الناس غزلاً . وبجانبه « الفرزدق » الذى عرف بأنه زير نساء لم يكن له غزل مشبوب .

وكذلك نجد أمثلته بين رجال السينما المعاصرين . فهذا « شارلى شابلن » ينحو فى حياته الخاصة منحى العزلة والنفور من المجتمع والانطواء على النفس ، مع أنه أقدر ممثل هزلى عرفه العصر الحديث فى العالم الفنى .

وأكبر ظنى أن التفسير الصحيح لهذه الظاهرة ، هو أن أولئك الفنانين يكملون فى عملهم الفنى ما حرموه فى حياتهم الخاصة التى هيأتها لهم طبيعتهم الظاهرة .

وقياساً على هذا التفسير يمكننا أن نعرف : لماذا ينجح صديقنا « طلبات » فى تمثيل دور الأشرار ، فقد ظهر فى « شيلوك » المرابى فى مسرحية « تاجر البندقية » ، وصاحب المصنع الوغد فى فلم « العامل » وفى غيرهما من الشخصيات الشريرة ممثلاً بارعاً يتقمص الشخصية التى يمثلها تقمصاً يدعوك إلى الإعجاب ، ويأسرك بمواقفه الفنية المحكمة .

وكل الذين اتصلوا اتصالاً وثيقاً « بطلبات » لا يخفى عليهم أن طبيعته الأصيلة تنطوى على الطيبة والرفق والدماثة ، وأنه ملىء بإنسانية خيرة يشع منها الوفاء والنبل وكرم المعاشرة .

ويلوح لى أنه حين واجه الحياة بهذه الخصال الرفيعة صادفته ألوان من المعاكسة وسوء الجزاء ، حالت بينه وبين ما يهدف إليه من مثل عالية تعتلج فى قلبه ، فيرغب أن يحققها بالوسائل الشريفة التى ترسمها له أخلاقه . وسرعان ما استبان له أن للنجاح وسائل لا تتفق دائماً مع الرفق

ولين الجانب ونبل الطبع ، فكان لذلك فى نفسه أثر ظل مكبوتاً ، حتى وجد له مخرجاً فيما يقوم به من الأدوار .

فهو بتمثيله الشخصيات ذوات النزعات الشريرة التى استبان له أنها الناجحة فى ميادين الحياة — يرضى الجانب الذى لم يستطع تطبيقه فى حياته العملية ، فلم يجد إلا أن يستكمله تمثيلاً فى حياته الخيالية ، وبذلك انتقم بالفن من المجتمع الذى أساء إليه ، ومن المثل التى وقفت حائلاً بينه وبين النجاح الذي كان يمنى به نفسه فى مجتمعه !

وإذا كنا قد أعجبنا « بطلمات » فى هذه الأدوار ، فلا ننسى أنه اشترى هذا الإعجاب بثمن عظيم ، هو إباؤه أن يكون شريراً عملياً فى حياته الاجتماعية .

ونحن نحمد الله على أنه وجد على منصة المسرح ، وعلى الستارة الفضية ، متنفساً يحفظه لنا من الإخلال بمبادئه السامية وأخلاقه الحسان فى واقع الحياة ! . . .

الدكتور ابراهيم ناجي

فى حفل تكريمه

أيها السادة :

نجتمع الآن ، فى هذا المكان ، لنترجم عن صادق شعورنا ، وخالص عواطفنا ، نحو صديقنا « الدكتور ناجى » ، فى مناسبة تقلده المنصب الجديد .

ولعل أظهر ما فى هذا الحفل ، أنه حفل أخوى ، لا تكلف فيه ولا تعمل. فإذا ألقينا نظرة على هذا الجمع رأينا الطبيب الذي سعى يكرم زميله ، والشاعر الذي جاء يقدر أخاه ، والصحفى الذى قدم يحيي رصيفه ، والأديب الذى نشط يزكى رفيقه ، والمريض الذى ساقه عرفان الجميل إلى شكر منقذه . وكل هؤلاء تجمعهم صفة مشتركة ، فهم جميعاً الصديق الذى حداه وحى قلبه إلى إزجاء تحية المودة لصديقه الصفى !

وحقاً ، تلاقت فى « الدكتور ناجى » شخصيات عدة ، فهو طبيب له زملاؤه ، وهو شاعر له أخلاؤه ، وهو صحفى له رصفاؤه ، وهو أديب له رفقاؤه ، وهو محاضر وكاتب له مستمعوه وقراؤه . ولكن اختلاف شخصياته تلك لم تكن وحدها هى التى جذبت إليه هؤلاء المقدرين على اختلافهم

فى احتفال الليلة ، وإنما جذبتهم صفة واحدة يمتاز بها « الدكتور ناجى » على تعدد شخصياته ، وهى صفة « الإنسانية » التى يستمدها من قلب كبير ، فتتمثل فى كل خاصة من خصائصه : تتمثل فى طبه وفى أدبه ، وتتمثل فى فنه وفى مهنته . فهو إنسان بالمعنى السامى لهذا التعبير

والواقع أننا لو توسعنا فى هذا الاحتفال ، فلم نحده بمكان خاص على نحو خاص ، لألفينا بيننا الآن جموعاً من طوائف شتى تشاركنا فى هذا التكريم ، وهى فى الحقيقة تشاركنا على البعد بقلوبها وعواطفها ، وإن غابت بأشخاصها . تلك الطوائف هى الطبقات الشعبية التى يزخر بها المجتمع ، فقد عرفت هى فى « الدكتور ناجى » صديقها الذى يحنو عليها ، وعرف هو فيها ميدانه الذى تتجلى فيه نزعته الإنسانية ، ومثله العالية .

فإنك تراه حيثما حل كثير الصحب : فى القهوة ، وفى الشارع ، وفى المتجر ، وفى المكتبة ، وفى غير ذلك جميعاً . فأينما هبط التف حوله : رائد السبيل ، والبائع الجوال ، والعامل ، والصانع . يحيونه فيحييهم ، ويجاذبهم الحديث فى ملاطفة عذبة ، ومفاكهة مستملحة ، وروح طيبة خيرة ملائكية النفحات !

وإذا كانت مناسبة هذا الاحتفال « بالدكتور ناجى » أنه تولى منصباً مذكوراً ، وعملا ملحوظاً ، فإننا فى الحق نقدر ما له من مواهب وكفايات تجعله كفئاً لما هو أرفع درجة وأسمى مرتبة. ولكننا اتخذنا من هذه المناسبة فرصة لإظهار ما هو مكنون من الشعور الصادق الدائم نحو

« الدكتور ناجى » الكبير القلب . . .

وإن رجاءنا أن تتاح له أمثال هذه المناسبة ، لكى تتاح لنا أمثال هذه الفرصة التى نعبر فيها عما يجيش فى نفوسنا للصديق العزيز من أصدق عواطف المودة والتقدير وطيب التمنى . . .

محمد زكى عبد القادر

فى جلسة أدبية ممتعة ، مضت عليها سنون ، كان التعارف بينى وبين الأستاذ « محمد زكى عبد القادر » وهو لما يزل غض الإهاب ، جديد الشباب .

وما إن اطمأن بنا المجلس ، واتصل بيننا الحديث ، حتى آلفيته يتوثب حيوية ويقظة ، وشعرت بأن نفسه تضطرم بالمثل العليا ، والأهداف الرفيعة .

كان ذلك واضحاً فى اتقاد نظراته ، وفى لهجة حديثه ، وفيما أثار من موضوعات واتجاهات .

ولكنه مع ذلك وديع المظهر ، دمث الجانب ، فى صوته سكينة ولين ، هيهات أن تروعك منه نبرة عنف واحتداد . وإنه كذلك لقليل الكلام ، يرسله محكماً موسوماً بالمنطق الذى يدعو إلى الإقناع ، ولا يحتمل المجادلة والخلاف .

عرفته وهو يومئذ حديث عهد بالتخرج فى مدرسة الحقوق ، يستقبل عمله فى ميدان المحاماة ، ويطاوع هوى كريماً إلى فن الأدب ، وصناعة القلم .

وما أسرع أن جمعت بيننا ألفة وإيناس ، فكنا نتلاقى فى الحين بعد الحين ، نتناقل الحديث فى شأن الحركة الفكرية التى تجلت فى تلك الحقبة ، تنشد الرقى ، وتبتغى الإصلاح .

ولا أنسى أننا تذاكرنا فى جلساتنا حاجة النهضة إلى مجمع يعلى من شأن الأدب ، ويشرف على توجيهه ، ويكون سبيلاً إلى مؤازرة وتعاون بين الأدباء على جسام الأعمال .

واضطررت أن أفارق أرض الوطن ، ولبثت فى « أوربة » بضع سنين ، فتعذر علىّ أن أواصل صحبتى بالصديق الناهض ، ولكننا تبادلنا بعض الرسائل ، وحرصنا على أن يظل اتصالنا الروحى لا ينال منه بعد المزار .

ورجعت إلى « مصر » أتتبع نشاط الصديق فى مختلف النواحى الأدبية والاجتماعية ، وأقرأ له ما يمدّ به الصحف من مقالاته ونقداته ، وأطالع مجلته « الفصول » التى استقبلنا بها طرازاً جديداً من صحافة الرأى والفكر والتثقيف .

ثم رأيته فى مكانه من « الأهرام » و« الأخبار » ، فصح عندى ما توقعته له من تجنيد نفسه للصحافة ، تحقيقاً لأغراضه الكريمة فى الإصلاح الاجتماعى .

وها هوذا يطالعنا منذ سنوات بقبساته التى يوجه بها الرأى العام « نحو النور » . . . وليست هى بالخواطر العابرة التى تجرى بها الأقلام

هينة ميسورة ، وإنما هى فى حقيقة أمرها رسم دقيق لمشاهد وشخصيات قومية صميمة ، وزبدة أبحاث عميقة فى مجتمعنا المصرىّ ، يلتقى فيها أساوب الأديب فى التصوير والتعبير ، ومنهج الباحث فى الدرس والتحليل .

هذه المقالات التى تتخذ من الأحداث اليومية مثاراً للتعليق ، ومناسبة للتوجيه ، تلمح فيها نظريات اجتماعية ممحصة ، وتدرك أن لها أهدافاً مرسومة لإيقاظ الوعى القومىّ ، وتزويده بالغذاء الصالح من تنوير وتبصير ، وإن كان مظهر هذه المقالات مجرد تعليق وتعقيب .

لا يكتب الصديق ما يكتب ليريك أنك تقف منه موقف الطالب الفتى من معلمه الشيخ ، وإنما هو يبسط خلاصة أبحاثه ودراساته فى دعة ورفق ، مشعراً لك أنه يحدثك حديث مودة وتلطف ، لا مباهاة منه برأى يجلوه ، ولا تعالىَ منه على رأيٍ يناقشه ، ولكنها حمية نفس راغبة فى الإصلاح ، تبعث على القول صافى المنبع ، لا لغو فيه ولا تأثيم .

إنك تقرأ فى عامة يومك ما تقرأ ، لكى تعرضه على ذهنك ، فتقبل منه على بعض ، وتعرض عن بعض . ولكنك لا تلبث حين تقرأ ما يكتبه الصديق أن تستشعر التجاوب بينك وبينه ، إذ تأنس فيما يجرى به قلمه قلباً يتوقد إخلاصاً وغيرة ، وتحس بأنه يتحدث ليترجم عما بنفسك ، فكأنما قد أدرك بفطنته ما يعتلج فى طوية المصرىّ من آلام وآمال ، فهو يعبر عنها تعبير الكاتب الموهوب .

هذا خادم من أصدق الناس خدمة لوطنه ، يقف على مرقبة من

شئونه العامة ، فيسجل قولة الحق فيما يدور من هذه الشئون فى شتى مرافق الحياة ، لا يعنيه إلا أن يجلو مرآة رأيه ، غير مبال أن يكون قد أصاب سلطة من السلطات ، أو أساء إلى هيئة من الهيئات ، فالمصلحة العامة عنده ميزان التقدير والحساب ، وحق الأمة عنده فوق كل اعتبار .

ما يزال الصديق فى جوهره محامياً ، وإن عدّ الآن من ذوى الأقلام ، ورجال الصحافة ، وحملة مشـــاعل الفكر ، فإن نزعة المحاماة التى هى عنوان ثقافته ، ومظهر اختصاصه ، ما برحت متأصلة فى أعماق نفسه ، على الرغم من فنه الأدبىّ ، وجهاده الاجتماعىّ . وليست هذه المقالات التى يطلع بها علينا كل يوم إلا قضايا أخلاقية وقومية واقتصادية وسياسية تمت إلى نفوسنا بأوثق الصلات . فكأنه اليوم يتابع عمله فى ميدان المحاماة ، بيد أن قضاياه الجديدة أجل وأرفع ، ومحكمته أشمل وأوسع ، لأنها قضايا المصلحة العامة أمام محكمة الرأى العام .

والصديق يكاد يكون الصحفى الوحيد الذى فرض على قلمه اجب العناية بالريف ، ذلك الميدان الفسيح الذى كان يلاقى العنت على الرغم من أنه يزخر بأغلب الأمة عدداً .

ولا غرو أن يجد الريف منه هذه الحمية فى الدفاع عنه ، وتحميس الضمائر له ، فهو ابن الريف الأصيل ، فيه نما وترعرع ، فعرف ما يعوزه من وسائل الإصلاح . وعاشر أهله ، فأحس بما يكابدون من خطوب العيش . ولذلك يتحدث عن الريف حديث خبرة تجريب ، ويدعو إلى

الأخذ بناصره دعوة مخلص غيور .

وإنه لحقيق بأن يكون من ألقابه أنه « صديق الريف رقم ١ » . . . وما أشرفه لقباً حين تصدق دلالة الألقاب على حقائق الجهود . . .

ولعل أظهر ما يمتاز به الصديق أنه حصيف فى دعوته إلى الإصلاح ، يبغى لها أن تكون عملية مكفولاً لها التحقيق . فهو حين يدعونا إلى مسايرة التطور، ويحضنا على نبذ الطرق القديمة التى رمت بنا فى صفوف المتخلفين ، نراه يحرص على الاحتفاظ التام بمشخصاتنا القومية وتراثنا التاريخى ، ذلك لأن الصديق تتكامل فيه عناصر المصلح البناء ، لا المقتحم الهدّام .

الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

كيف عرفته ؟ . . .

فى صيف سنة ١٩٣٩ لقيت المرحوم الدكتور إسماعيل أحمد أدهم أول مرة ، وصحبته وقتاً ليس بالقصير ، إذ كنت أجتمع به فى صفوة من أدباء الثغر الإسكندرى بين آن وآن . وفى الحق أنه ما كان يدور بخلدى ولا بخلد أحد غيرى توقع هذه الخاتمة الفاجعة لذلك الصديق ، على الرغم مما يبدو فيه من بعض الشذوذ .

تمّ لقاؤنا فى مشرب « التريانو » ، فإذا هو شاب نحيف ، أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ذو سحنة شركسية لا تفصح عن صحة موفورة ، ولكنها مع ذلك لا تنم عن علة .

وقد استقبلنى فى تلطف أذكرنى الأدب التركى القديم ، ذلك الأدب الذى يتجلى فيه كثير من مظاهر المجاملة والتكريم . وجلس فى بادئ الأمر مؤثراً للصمت والاستماع ، فإن خرج عن صمته أرسل الكلام فى صوت خافت كأنه الهمس ، تكاد تخطئه الأذن !

وانقضى اللقاء الأول ، فلم أشهد منه انطلاقاً فى التحدث ، ولا رغبة فى امتلاك زمام المجلس ، فقد كانت تغلب عليه الاستكانة والانزواء .

على أن أول ما راعنى منه شيئان : عين تشع ذكاء وألمعية ، وابتسامة يختلط فيها التلطف والدماثة بشيء من الملاحظة الدقيقة اللاذعة . وذلك ما كان يستبين لى فيما أقرؤه له من نقد ودراسة .

ولما ترادفت اجتماعاتنا ، وتوثقت صلاتنا ، عرفت فيه ميزة أخرى ، هى ميزة الصراحة والجرأة . فأما الاستكانة التى كانت مظهره فى الجلسة الأولى ، فقد فسحت الطريق لاندفاع فى التحدث ، وحمية فى إبداء الرأى . ولولا أنى لاحظت فى صوته بحة ملازمة ، لقدّرت أن يكون له فى ميدان الخطابة شأن عظيم .

ولقد رأيته حين يعرض فكرة ، أو يحلل مذهباً ، ينطلق كالسيل ، فيدعم قوله ببراهين قوية تأخذ على مناظره السبيل . وهنا تبدو جوارحه كلها تشاركه فى النقاش ، فإذا به كله يتكلم ، وإذا بشفتيه ترسلان الجملة فى أثر الجملة ، فلا تكاد تتابعه الأسماع .

ولست أريد فى هذه العجالة أن أتناول أدب الدكتور أدهم بالدرس ، أو أتعرض لجوانب كثيرة من شخصيته بالتحليل ، وإنما أقصر كلمتى على تلك الميزات التى ألمعت إليها من قبل ، وهى : الصراحة ، والجرأة ، والذكاء . ولعل هذه الشمائل أهم العناصر التى كونت طابع ذلك الأديب فى حياته وأعماله . وربما كانت أكبر الأسباب كذلك فيما أصابه فى دنياه من آلام ومنغصات .

ومن لم ير الدكتور أدهم ، لم يتعذر عليه أن يتعرف تلك الصفات فى

دراساته ونقداته . فلقد كان ذكاؤه يسعفه إذا أعوزه التحصيل . وكانت الجرأة والصراحة عوناً له على إعلان آرائه المتطرفة فى الدين ومذاهب الاجتماع .

وإذا لم نكن على رأيه فى كل ما ذهب إليه ، فإننا لا ننكر ما لهاتين الخلتين من أثر له خطره فى حياتنا العقلية . فقد طالما ألفنا من الشرقيين رخيص المجاملة والمداهنة ، فلا نبالى بما يجنيه التستر على الحقائق من جرائم العقل والخلق .

وإن أديباً يحمل لواء الجرأة والصراحة فى الأدب العربى المعاصر ، لهو خليق من قومه بالثناء والتكريم . وإن عمله هذا لجدير أن يغرى شبابنا الأدباء باقتفاء أثره ، فنرى منهم الجهر بعقيدتهم فى صدق وإخلاص واستقلال نظر . وحسب الدكتور أدهم أن يكون له هذا الفضل .

ونحن حينما نحضّ على أن يكون الأدباء صرحاء جرءاء ، فإنما نحض على أعظم المقومات الخلقية شأناً . فقد لبثنا سنين فى غمار المخادعات والأكاذيب ، يلقى كل منا أخاه بمجاملة مزورة ، وتطلع الصحف على قرائها مشحونة بألوان التغرير ، فظننا أنفسنا كباراً ونحن أقزام ، وانتفخنا على غير سمن . فما أطيب ذكرى من عمل على تمزيق الستر المستعار ، ولفت الأنظار إلى ضرورة احترام الحقائق والإزراء بالمجاملات .

هذا وإن كل أديب صادق العاطفة ليشعر بأسف على فقد ذلك الباحث الفاضل الذى كان له أثر فى أدبنا العصرى . . . ويشعر إلى جانب

ذلك بواجب نحو ذكراه، نهضت به مجلة « الحديث » فى مدينة «حلب» على أحسن وجه ، فقد أصدرت عدداً خاصاً بتأريخ حياته ، والإشادة بجهوده ، فهى بهذا الصنيع تقابل بالمثل جميلَ الدكتور أدهم الذى كان يعنى فى حياته بدراسة معاصريه الأدباء والكتاب . . .

القبّانى

كثيراً ما يخالف الاسم مسماه إلى حد التناقض ، ومن القليل النادر مثل هذا التطابق العجيب الذى نجده بين اسم الصديق الأستاذ « حسين القبانى » وشخصيته ، حتى لكأنه سمى به بعد أن أسفرت فيه علائم الملاءمة بينه وبين كل ما يثيره اسم « القبانى » من كرائم المعانى .

إنه رجل وزين . . . فى فكره ، فى فنه ، فى تعبيره . . . . فيما يربط بينه وبين الناس من وشائج وعلاقات ، وهو فى وزنه قد وهب صنجة ذهبية دقيقة المعيار ، حقيقة بالاعتبار .

تقرأ « للقبانى » ما تقرأ من قصصه ، فإذا هو قابض على الناصية فى السرد والمعالجة والتحليل ، لا تكاد تجد منه شططاً وإسرافاً فيما يعرض من المشاهد وما يصور من الشخصيات .

ويجلس إليك ، ليحدثك خالياً بك ، مفضياً بذات نفسه ، فكأنك به يتحكم فى عواطفه ومشاعره ، ليردها إلى الاعتدال فى الرأى ، والقصد فى القول .

وهذه الخاصة فيه هى التى عملت — من حيث يدرى أو لا يدرى —

على أن يتوسط تلك الندوة الطريفة التى تعقد جلساتها كل أسبوع لتقوم بالموازنة الأدبية بين آراء وأعمال وكُتّاب .

وليس يخشى أديب فى هذه الندوة أن يغبن أو يذهب قدره هباء ، ما دام « القبانى » فيها يبث فى جنباتها روح الحكمة والنصفة والاتزان .

إسماعيل تيمور

لما سئلت أن أكتب فى شأن شقيقى « إسماعيل » ، ألفيتنى فى حيرة مضنية . هل ألبى دعوة السائل ، فأقدم صورة شخص من أحب الناس عندى ، وأقربهم إلىّ ، صورة قد يجد فيها القارئ لوناً من التحيز يثير استخفافه ؟ . . . هل أتنحى لغيرى ، يتحدث فى شأن مهما يحاول الإجادة فيه ، فهو ناقص مبتور ؟ . . . وهل يستطيع الغريب أن يبلغ الإخلاص فى قوله ، والصدق فى نظره ، مبلغ الأخ الشقيق ؟

إذاً لابد مما ليس منه بد ، فلأتذرع بالشجاعة ، والله نصيرى !

إذا شئنا أن نكتنه شخصية « الأمين الأول » تعين أن نعود القهقرى عشرات الأعوام ، فنصاحبه وقتاً وهو صبىّ يافع ، موزع الوقت بين المنزل والمدرسة . . فى هذه السن المبكرة ، بدأت شخصية « إسماعيل » تتوضح ، وتخط لها طريقاً معيناً فى الحياة ، وكلما تعاقبت السنون . تجلت هذه الشخصية مكتملة ثابتة المعالم . . . كان يعتز دائماً بمنزلته فى الأسرة ، منزلة الابن البكر ، وأراد بدافع — غير واع — أن يثبت لنا جدارته بهذه المكانة ، فاتخذ له بيننا شخصية « الزعيم » .

وكنا إخوة ثلاثة ، أولنا « إسماعيل » وثانينا « محمد » والثالث : كاتب

هذه السطور. ومع أن البون لم يكن شاسعاً بين أعمارنا، استطاع « إسماعيل » أن يزعم علينا ، وقبلنا نحن هذه الزعامة راضين ، إذ لمحنا فيه مطلع رجولة مبكرة، منطوية على رزانة وتعقل، بعيدة عن طيش الطفولة وعبث الصبا ، فإن شاركنا فى اللعب ، وجدناه على الفور يتخذ فينا مكان الرياسة ، وحين ألفنا فرقتنا التمثيلية البيتية ، اضطلع هو بأدوار الزعماء من قادة وملوك . فلما اشتد عودنا ، وخطونا فى رحاب الشباب خطانا الأولى ، أحجم « إسماعيل » عن مشاركتنا فى لعب الكرة ، وسباق العدو ، وما إلى ذلك من صنوف الملاعب . كذلك أعفى نفسه من التحرير فى صحيفتنا المنزلية ، وانصرف مقبلاً على الدار ، يصرف شئونها مقتدراً لا يعييه شىء . وإذ يشهدنا فى لبوس الرياضة ، خارجين إلى الملعب ، يفتر ثغره عن ابتسامة الأب العطوف !

وتلاحقت بنا الأعوام، فإذا « إسماعيل » يشرف على مزارعنا بالريف ، ويديرها فى نشاط ودراية أسبغت على الوالد فى أخريات أيامه طمأنينة وراحة بال .

وكان فى كل أطواره تلك ، يمثل النظام والمثابرة وشئون التقاليد فى أدق مظاهرها ، فلا غرو أن جلس اليوم فى منصب يتطلب ممن يشغله تلك الخصال التى لازمت « إسماعيل » منذ الصبا ، فصارت فيه الآن طبعاً أصيلا لا يملك منه الفكاك . . . .

هذه صورة موجزة لـ « إسماعيل » حتى بلوغه منصبه فى القصر، وهى

خليقة أن تثبت لنا أن الطفل فى سنيه الأولى لم يكن إلا صورة مصغرة من رجل المستقبل ، تجمعت فيها آماله وخلاله .

ولما كنت الآن فى معرض التحليل لشخصية « إسماعيل » فلزام علىّ أن أستكمل صورته فى مختلف نواحيها ، وبتعبير آخر : يجب أن أتناول بالحديث جانباً مجهولا من شخصيته . فلقد فرضت عليه مقتضيات الحياة وملابساتها واجبات الإدارى الموهوب الراعى للتقاليد ، فحدت من حريته ، وضيقت من آفاقه ، فمنعته أن يستمتع طفلا بكل ما فى الطفولة من مراح وصخب ، ودفعته وهو فى زهوة الشباب المفعم بالغوايات أن يسلك طريق العمل المتواصل ، ويقصر جهده فى الحصول على الشهادات العالية ، متطلعاً أبداً إلى مرتبة تواتى نزعاته وأمانيه .

أجل ، إن مقتضيات الحياة وملابساتها قد صبغت حياة « إسماعيل » بلون لم يكن مشرقاً كل الإشراق ، فخلعت عليه فى سن مبكرة وقار الشيوخ وحنكة المجربين ، وقد قابل « إسماعيل » هذا بالرضا ، وأذعن له بالطوع . ولكن « الطبيعة » الجبارة لم تخضع ولم يهن لها عزم ، فانطلقت تعمل فى الخفاء لتنتقم من جد « إسماعيل » ووقاره ، ولتنال من مجالى الحياة مسرات تعوضها عما فقدته وما تزال تفقده ، فظهر على الأثر فى شخصيته جانب آخر له خطره .

وإنى إذ أعتزم رفع الستر عن هذا الجانب ، أرانى قد أقحمت نفسى فى مأزق لا يعلم إلا الله أين منه سبيلى إلى الخلاص ؟ !

وقبل أن أفضى إليك بالسر الكمين ، أريد أن أصحبك فى رحلة قصيرة إلى مكتب عمله . فإذا ما اجتزت عتبة الباب ، طالعك على الفور شخصه خلف مكتبه ، وهو آخذ بسماعات الهاتف يصغى إلى ما تنقله إليه من أحاديث مختلفة الألوان واللهجات . فيجيب عليها فى وقت واحد لبقاً غير متعسر . وأمامه كومات من الأوراق يرمقها وترمقه فى عتاب وحذر ، وهو فى الوقت نفسه لا يفوته أن يحتفى بوفود الزوار التى لا ينقطع لها سبيل ، يسأل هذا عن صحته ، ويبادل ذلك حديثاً يتعلق بالجو ، ويجامل ثالثاً بجملة خاطفة ، ورابعاً بتحية تتجمع فيها أصول اللباقة والأدب الرفيع . وقد تكون مشتبكاً معه فى نقاش مهم ، فترفع بصرك إليه فلا تجده ، فترسل بنظرك فيما حولك تبحث عنه ، فإذا هو فى البهو يستقبل جمعاً من الوفود ، مستمعاً إلى خطبائه ، مجيباً كل خطيب بما يثاج صدره ، ثم لا تلبث أن تراه قد عاد إلى مجلسه الأول معك يتابع نقاشه فى بشر وطلاقة . . .

وهناك فئة من الزوار يصح أن نسميها « الأطياف » ، وأكثرها من ذوى المقامات الممتازة ، فهى لا تكاد تبدو فى الحجرة حتى تختفى فى لمح البصر ، ولا يملك « إسماعيل » إلا أن يغدو طيفاً مثلها ، يلاحقها ويتابعها ، فلا تفطن إلى مكانه إلا بنبرات صوته . . . يقع هذا كله ، ورهط من إخوانه الموظفين واقفون أمام مكتبه ، مرتقبون مقدمه ، يحمل كل منهم إضمامة أوراق ، يبتغى عرضها عليه فى خلوة عاجلة .

خلف هذه التكاليف والمراسم ، يكمن الجانب الفذ من شخصية « إسماعيل » ، وقد حان أن نجلوه لأعين القراء . . . هذا الجانب يمثل « إسماعيل » الساخر المتهكم ، فأما رمز هذه السخرية وهذا التهكم ، فهو ابتسامة خفيفة تعلو شفتيه ، هى فى مظهرها كسطح البحر الهادئ تحسبه ضحضاحاً ، ولكنه فى الحق غمر بعيد القاع . . .

وإن « إسماعيل » ليعتز بهذه الابتسامة اعتزازه بأغلى الأشياء ، وهى فى نظره بمثابة خطوط دفاع عتيدة ، يحشد خلفها جيوشه المنظمة ، ثم يطلقها عند الحاجة لا لتقتل وتدمر ، بل لتثير روح الدعابة اللطيفة ، وتحيل ذلك الجو المتحفظ الوقور جواً رقيقاً يشمله الإيناس والبشاشة ؛ وإنى لا أخشى شيئاً خشيتى لهذه الابتسامة ، فإن لمحت طيفها يتخايل على وجهه ، أيقنت أن ثمة إعصاراً من التهكم قد أخذ يتجمع فى صمت وسكون ، فأعد العدة فوراً للفرار ، وإلا كنت فى الفخ ضمن المصيد !

وما دام هناك تهكم ، فواجب أن تكون هناك فئة المتهكم عليهم . وأولئك هم الذين نسميهم بـ « الضحايا » . . وإننا نحمد الله على أن « الأمين الأول » ، قد قصر تهكمه الصامت وعبثه الخفى ، على طائفة محدودة مختارة ، يستبقيها فى مجلس خاص ، ثم يطلق الفرد أو الجماعة منها ، كلما استبدت بنفسه رغبة التهكم الجامحة ، ويجعل منها مفزعاً وسلوى .

وإنك لتعجب من أن هذه الطائفة المختارة ، دائمة التجدد ، والسر فى ذلك أن لـ « إسماعيل » عيوناً ومندوبين يبثهم فى مختلف المناطق ، هنا فى « القاهرة » ، وهناك فى الريف ، يتصيدون الشخصيات البارزة ، ويقدمونها له غنائم لا ينقطع لها ورد !

ولكل أصدقاء « إسماعيل » غرام بضحايا « إسماعيل » .

فلا يكاد قادم على القصر ، يقع بصره على « الأمين الأول » ، حتى يسأله فى لهفة عن « الضحايا » . فيأخذه « إسماعيل » بيده إلى مجتمعهم العجيب ، فإذا هم مجموعة نادرة من الطوائف البشرية لو صادفتها فى متحف من متاحف التاريخ الطبيعى لم تصدق عينيك . . . مجموعة تحوى شخصيات من مختلف العصور والأجناس : هذا تركى من أتراك القرون الوسطى ، يميل إلى مملوك من حكام الأقاليم فى العهد الغابر ، بينهما شيخ من معاصرى « الجبرتى » ، على مقربة منهم ألبانى من معاصرى العهد العثمانى ، يجالس عالماً لم يسمع بعامه أحد ، وطبيباً لم يتجاوز اسمه عتبة حجرته . . .

وإن هذه الطائفة الكريمة لتقف صفاً أمامه يعرضها كما يعرض القائد صفوف جنده . . . ثم توزع عليهم بعد ذلك أقداح القهوة ، ولفائف التبغ ، وملحقاتها !

تلك صورة سريعة ، أقدمها للقراء على حقيقتها ، وإنى لموقن بأن الحساب سيكون بسببها غير يسير ، على أنى فوضت أمرى إلى الله . . .

محمد تيمور

ذكرى « محمد تيمور » هى ذكراى أنا نفسى فى زهرة العمر . . إذا تصفحت أحداث حياته ، برزت على الفور أحداث حياتى . . وإذا خططت لماضىّ صورة فى ذلك العهد ، ألفيته هو ماثلاً فى تلك الصورة ، عريض الخطوط ، زاهى الألوان .

لقد ارتبطنا منذ النشأة برباط وثيق ، ولم يكن ما بيننا هو ما يكون بين الشقيقين ، بحكم الأخوة ، من تلازم واتصال ، بل جاوز ذلك إلى ألفة وتوافق فى المناحى والأميال .

كلانا كان توّاقاً إلى الأدب والفن .

أقبلنا على الكتب نطالعها فى تشوق يبلغ حد النهم .

وأنشأنا صحيفة ننشر فيها ما نهوى ، كان توزيعها مقصوراً على أهل البيت أول الأمر ، ثم أصابت حظّاً من الرواج والانتشار بين أهل الحى الذى نسكنه . ومضينا نؤسس الأجواق المنزلية وغير المنزلية ، ننفس بها عن تطلعنا إلى ممارسة فن التمثيل .

وكنا مع ذلك الرباط الأدبى الفنّى على هوى واحد فى الرياضة ، رياضة كرة القدم . وأعاننا على إشباع هذا الهوى مقامنا حيناً فى « عين

شمس » ، فى تلك المنطقة الشاسعة ، فأنشأنا فرقة للعب ، ندعو بها الفرق المجاورة إلى تبادل المباريات .

كان « محمد تيمور » فى هذا الصبا الباكر ، يكتب النثر ، وينشره فى صحيفة « المؤيد » وغيرها من صحف تلك الأيام ، وكان ينظم الشعر ، وينشده فى المجالس الخاصة والمحافل الإخوانية . وهو فيما يكتب وينظم لامع متوثب ، بيد أنه لم يكن فى نثره مجدداً ، ولا فى شعره مبتكراً ، بل كان فى نطاق هو أقرب إلى المحافظة منه إلى الانطلاق .

وأذكر له مقالاً موضوعه « المرأة فى وادى القمر » ويعنى بوادي القمر « اللونابارك » أو ما نسميه الآن « مدينة الملاهى » ، فقد صب فى هذا المقال نقمته على المرأة تطرق ذلك المنتدى ، وعد ذلك منها خلاعة وخروجاً على العرف المألوف . وكذلك أذكر منظوماته التى كان يلقيها فى مباريات كرة القدم ، احتفاء بالفرق المدعوة ، وإشادة بلاعبيها البارزين ، وهو فى منظوماته تلك لا خلاص له من إسار الطابع التقليدى فى نظم الشعر .

ثم رحل ، وسنه دون العشرين ، إلى « فرنسا » يطلب درس الحقوق ، ومكث هناك ثلاث سنوات قبل الحرب العالمية الأولى ، وبينما هو فى وطنه يقضى فترة العطلة ، تطايرت نذر الحرب ، فحالت بينه وبين العودة لاستكمال الدرس .

وفى الحق أن سفره إلى « فرنسا » كان فاصلاً بين عهدين ، وكان فاتحة تطور عميق خطير فى نزعاته ونظراته جميعاً . ما كاد يحل ذلك البلد

الأوربى المتألق حضارة ونهضة فكر وأدب وفن ، حتى أقبل على الروائع من القصص والروايات يعب منها ما يستطيع أن يعب ، وانساق إلى دور التمثيل يشهد من المسرحيات ما يتاح له أن يشهد ، ودامج الحياة الاجتماعية هناك فى مختلف المرافق والمظاهر .

عاد « محمد تيمور » يبشر بمبادئ ، ويهتف بدعوات ، فهو فى الحياة يحث على تحرر وانطلاق ، وفى المجتمع يبث روح الديمقراطية الحقة ، وفى الأدب ينادى بخلق تعبير مصرى صميم . فتجلت شخصيته فى ناحيتين :

التجديد فى نزعة تكاد تكون ثورية .

والرّيادة لفئة من الشباب المثقف المستنير .

والسنوات القلائل التى عاشها « محمد تيمور » فى وطنه ، بعد عودته من « فرنسا » ، كانت سنوات قلق عارم ، وحيرة طاغية ، فى طول البلاد وعرضها ، سنوات تحفز للثورة الوطنية الأولى ، وإرهاص لها ، أو خوض لغمارها . . . فى تلك السنوات كان « محمد تيمور » موزع الجهد فى ميادين شتى ، ناذراً لها كل أوقاته وطاقاته .

ومع أن الموت أعجله ، فقضى دون الثلاثين ، فإنه أعطى النماذج الإيجابية لما كان يدعو إليه ، وبلغ من التأثير بها ما كان يبغيه . ولكن مظهر الريادة فى عمله فاق مظهر الإنتاج . على أن حصيلة إنتاجه فى تلك المهلة القصيرة من العمر ، كانت فيها ألمعية الخلق والإبداع ، وعليها طابع

الجدة والابتكار . وإن المدرسة التى أرسى أسسها وأقام دعائمها ، وجمع من حولها الحواريين والأشياع ، كانت نبتة زاكية لإبراز تطور جذرى فى الأدب ، وشق أفق جديد فى الفن ، وإشاعة مفاهيم عصرية تقدمية للمجتمع وأوضاعه .

ولكى يستبين لنا كنه هذه المدرسة وما هدفت إليه ، نسوق ما صورها به أديب معاصر لها ، وعلم من أعلامها ، هو الأستاذ « أحمد خيرى سعيد » .

فقد كتب على أثر وفاة « محمد تيمور » سنة ١٩٢١ ، يقول :

« لا يعرف تيمور إلا مدرسة تيمور . . . مدرسة الهدم والسخط والتمرد ، ومدرسة البناء والتفاؤل والتطور أيضاً . . . فأنا وهو ، وكل أعضاء هذه المدرسة قد اندمجنا فكرياً ، والصلة بيننا كانت الذهن وثمرات الذهن ، والمبدأ الجرىء الخالد : مبدأ الخلق والتمهيد له . . . كانت نظراتنا الأولى موجهة إلى ذاتنا ، إلى عالمنا الداخلى ، إلى استكناه الفطرة النفسية . . فالجامعة التى كانت بيننا جامعة إصلاح وحركة تطور وانقلاب . . . مدفوعين باختلاجات قوية ، وثورات باطنية ، للخروج على القديم ، وها هى عملية الهدم تطرد ، والثغرة فى أسوار القديم تتسع وتنفرج ، وسندخل المدينة ظافرين » .

وكان الرأى الأدبى العام فى عصر « محمد تيمور » يتنازع فى منهج النهضة الأدبية ومخططها : أعلى الترجمة يقوم أولاً ، أم على التمصير

والتأليف ؟ فكان من الأدباء من يرى التفرغ لنقل الذهن فى العالم العربى إلى ميدان الآداب والعلوم والفنون فى العالم المتمدن ، وكان « محمد تيمور » ممن يعتقدون أن الترجمة فيها تنوير وتبصير للأمة جمعاء ، ولكن التمصير والتأليف خطوات نحو الابتكار ، نحو إبراز الشخصية المصرية فى الأدب ، والتعبير عنها تعبيراً فنيًّا رفيعاً .

ولم يكن « محمد تيمور » على فتنته بالجديد مزرياً بالتراث العربى ومقوماته فى أنماط الأدب وفنونه . فهو يأبى الجمود كما يأبى الانسلاخ من قوميته وعروبته وموروثاته ، وعلى الرغم من أن الدعوات الجديدة فى عنفوانها تتسم بالطفور والغلو ، فإن « محمد تيمور » كان فى دعوته رزيناً وزيناً حصيف الرأى ، ومن ثم استقام للدعوة عودها ، وظفرت بالاستجابة والقبول . وقد كتب فى تقديم ديوانه الشعرى يقول :

« الشعراء فى مصر ينقسمون إلى قسمين : الأول يحبذ القديم ، والثانى يتمسك بالمذهب الجديد . أما صاحب الديوان فشعاره : المذهب القديم جميل ، والمذهب الجديد جميل ، والشاعر طائر لا يعرف داراً ولا موطناً ، يتنقل من غصن إلى غصن ، فإن راقت له جنة القديم غرّد فيها ، وإن أعجب بجنة الجديد سجع فى دوحها ، ولا عجب لو وجدناه فى جنة ثالثة يحل فيها عن نفسه قيود الوزن والقافية » .

وفى هذه التقدمة ما يعبر عن روح « محمد تيمور » فى إعزازه للقديم وترحيبه بالجديد ، وفيها أيضاً إيماءة إلى إحدى قضايا الأدب فى ذلك

العهد ، قضية الشعر ، وهل يلتزم فيه بقيود الوزن والقافية ، أو يتحلل منها ؟

وقد عالج « محمد تيمور » الشعر المنثور ، على نحو ما عالجه شعراء المهجر ، وعالج الشعر الموزون المقفى ، ملتزماً عمود الشعر العربى المأثور ، وقد عبر الأستاذ « عباس حافظ » فى ذلك الوقت عن رأيه فى منهج تيمور الشعرى ، ملمعاً إلى بعض المتطرفين من أدباء المهجر ، فقال :

« لم يكن شعر تيمور من تلك الضروب الشعرية المتكالفة التى تجعل للطبيعة دموعاً تذرف ، وخدوداً تقبل ، وجدائل ترسل ، ويداً بضة تلثم ، بل كان صوراً رائعة للآلام الإنسانية والمشاعر الحزينة والخواطر النفسانية ، لقد كان وليد الصدق والإخلاص والعاطفة والشعور الحساس » .

نظم « محمد تيمور » الشعر الغزلى ، والشعر الوجدانى ، والشعر الوصفى ، ولم يكن هو بالفتى الحزين المهموم ، بل كان الشاب الضاحك الذى لا تفارق النكتة فمه ، وحديثه ابتسامة ساحرة ، ولكن ذلك الفتى الذى كان يجالس الناس ويسامرهم لم يكن إلا الفتى المتألم ، كانت له نفس باطنة تظهر حين يعبر عن عواطفه بالشعر ، فى قصائده نغمة حزينة هى رنين أوتار قلبه المتوجع .

وقد تضمن شعره ضروباً من التأمل والمناجاة ، تتميز بالجدة ، وتسمو على الموضوعات الشعرية المرددة المحكية عن السالفين من الشعراء ، كما يتبين من عنوانات قصائده ، ومن أمثلتها : « شجرة على شفا الموت »

و « دمع الشفق » و « الطائر السجين » و « البلبل الصامت » و « النجم الآفل » و « ظلام النفس » . وإليك أبياتاً من إحدى قصائده ، يصف فيها « الليل » :

قد أودعته النفس أسرارها　　كأنه للسر نعم المقر
ألحانه تقبيل أهل الهوى　　وهمس من يحلو لديه السهر
ونوح محزون شكا همه　　يثير شكواه حفيف الشجر

وفى قصائد أخرى ترق عاطفته وتعذب ، ويترقرق تعبيره هيناً ليناً ، حتى لتهب علينا من خلالها قسمات شاعر مصريٍ قديم ، هو « البهاء زهير » كما فى قصيدته « الظبي النافر » ، وفيها يقول :

مال عنى ومضى　　غاضباً ظبي الفضا
لم أطق حبس دموعى　　يوم ولى معرضا
تارة يرضى وطوراً　　ألتقيه مبغضا

و « لمحمد تيمور » فى مجال الفنون الأدبية التقليدية ما كتبه من مقالات وجدانية ، وما أدلى به من آراء فى الأدب والاجتماع ، وما دونه من مذكرات مقامه فى « باريس » . . .

وفى هذا الحصاد من قلمه تتجلى لوامع أديب متفنن أصيل الرأى بعيد النظر ، فأنت تراه فى ذلك العهد المبكر يكتب فى شأن « المجمع اللغوي » فيختصر فى سطور أهدافه وما ينتظر منه على نحو يصلح اليوم

بعد نصف قرن من كتابته أن يكون تعبيراً دقيقاً عن الأهداف المجمعية المرجوة .

وفيما كتبه من نقد لكتاب «المواكب» لأديب المهجر « جبران خليل جبران » نراه يرد الأشياء إلى أصولها ، ويسلك مسلك التحليل والتعليل ، فيصور « جبران » بأنه شاعر يهز أوتار القلب ويوقظ النفس النائمة ، وأنه يعمد إلى أسلوب جديد يملؤه بالاستعارات والرموز لم يقتف فيه آثار كاتب قديم ، وأنه يسير وراء شخصيته ، وقليل من كتاب العربية من هم كذلك ، تسفر كتاباتهم عن شخصياتهم .

وهنالك جانب الخلق والابتكار فيما كتب « محمد تيمور » . . . جانب الأدب القصصى والأدب المسرحى . . . ومهما تبلغ القصة المصرية على مر العصور من الجودة ، ومهما ترق فى سلم الآداب العالمية ، فلن ينسى تاريخ الأدب العصرى أن صاحب « ما تراه العيون » كان الطليعة الناجحة الموفقة لإنشاء قصة مصرية الموضوع ، مصرية الشخصيات ، مصرية أصيلة فى تعبيرها عن الروح والجو والمعالم الخاصة المميزة .

ولن ينسى الفن المسرحى كذلك لصاحب « عبد الستار أفندى » و « العصفور فى القفص » و « العشرة الطيبة » و « الهاوية » ، وصاحب النقد الفنى للتمثيل ، والمحاكمات الفكهة للمؤلفين الروائيين فى تلك الحقبة ، أنه كان رائداً خلاقاً فى تاريخ المسرح القومى .

لم يشف غليل « محمد تيمور » أن يكتب للمسرح ، وأن ينقد المؤلفين

له ، بل اقتحم المسرح نفسه ممثلاً ، واشترك فى تمثيل رواية « عزة بنت الخليفة » و « العرائس » وغيرهما ، وكان أمل « جورج أبيض » أن يستخلص « محمد تيمور » ممثلاً بجانب « عبد الرحمن رشدى » المحامى ، و « فؤاد سليم » الأديب .

وقف الأستاذ « مصطفى عبد الرازق » فى حفل تأبين « محمد تيمور » عقب وفاته ، يقول :

« نريد أن نسجل فى تاريخ نهضتنا صحيفة لشاب ديمقراطى حر نبيل جدير بشباب مصر الناهض إلى الحرية والديمقراطية أن يتخذه مثلاً . . لقد استقال من خدمة القصر ليخدم الشعب ، شعوراً منه بأن الشعب أولى أن يخدم ... لقد خرج من دار الملك ليشتغل فى دار التمثيل مؤلف روايات وممثلاً أحياناً ، ذلك بأنه شعر بحاجة الأمة إلى تربية ذوقها وتهذيب عواطفها ، ورأى التمثيل أحسن مدرسة للعواطف والأذواق ، وهو فى بلدنا مزدرى ، فلم يبال بلوم اللائمين وسخرية الهازئين ، فنفع التمثيل بمواهبه ، كما كرمه باتصاله به ، وخلد له فى تاريخ الفن أثراً إن لم يعرف حقه المعاصرون فستشدو بذكره الأجيال » . . .

تعدد نشاط « محمد تيمور » فى الأدب والفن ، وكان له مع ذلك ألوان من النشاط الاجتماعى ، فقد اشترك فى كثير من الأندية والمحافل ... كان فى جمعية أنصار التمثيل ، وفى جمعية رقى الآداب ، وفى الحزب الديمقراطى ، ولم تخل هذه المحافل والأندية من خطب له أو « مناجيات »

(منولوجات) تنطوى على نقد للمجتمع وعرض لمشكلاته، وتجهر بالدعوة إلى تغيير وإصلاح .

وفوق ذلك كله ، أسهم فى العمل الصحفى ، فأشرف على إصدار مجلة « السفور » ، وهى يومئذ منارة الرأى الحر ، وشعلة الروح الجديد ، وملتقى الطليعة المشرئبة إلى التقدم والنهوض .

لقد سئلت مرة : لمن كان التأثير الواضح فى تكوينك الأدبى ؟ فأجبت : لاثنين : أبى « أحمد تيمور » بشخصيته وبيئته ومكتبته وزواره من العلماء والأدباء ، فكان له الفضل فيما طبعت عليه من إكبار للمقومات الأصيلة فى حياتنا القومية من لغة وأدب تاريخ . والثانى : شقيقى « محمد تيمور » ذلك الذي إليه الفضل فى توجيهى ، وبث النزوع إلى الحرية والطلاقة ، وفى إيمانى بفكرة التطور وروح التجديد .

وأذكر أنه كان يواليني برسائل من فرنسا يلخص لى فيها ما أفاد من المطالعات والمشاهدات ، ويبصرنى بما عرف من أهداف ونظريات ومفاهيم ، فلما عاد من سفره كان لى أستاذاً ورائداً ، آمنت معه بأن الأدب رسالة اجتماعية ، فيجب أن يعكس صورة المجتمع الذى يعيش فيه ، واتخذت من أقاصيصه يومئذ نماذج أستهديها وأقتفى أثرها فى فنية القصة وكيف تصاغ .

عمتى عائشه التيموريّة

إليك يا عمتاه أحبر هذه الأسطر القلائل، محاولاً فيها أن أبتعث من غياهب الماضى السحيق ذكريات ما أعزها علىّ ، وأن أستشف من خلال الأمس المطوىّ صوراً حبيبة ترف إليها العين ويخف القلب . . . وإنك لتتراءين لى فى هذه الصورة تحف بك مهابة ، ويلوح عليك إشراق .

أحق أنى أبتعث منك أطيافاً وذكريات ، وأستثير صوراً وخيالات ؟ أم الحق أن روحك الحىّ الخالد يرفرف حوالىّ ، وأنى ما زلت أتلقى نفحات ذلك الروح فى وهجه العلوى ؟

مهما يكن من أمرى معك ، فى حياتك وبعد مماتك ، حقيقة كنت أو خيالاً ، رسماً أنت أو ذكرى ، طيفاً تجليت أو نفحة روح — فقد استشعرت دائماً وجودك بجانبى ، تطالعيننى فى مختلف أطوارى ، وتسايريننى من حيث أدرى ولا أدرى ، فتكونين لى نعم الصاحب الأمين .

منذ النشأة الأولى وأنا أستمد منك العون فى ذلك الجانب المرموق من حياتى ، جانب النزعة الأدبية التى أعتز بها وأغالى ، فلأنت الآخذة بناصرى فى طليعة من كان لى عوناً من أب وشقيق وصديق .

ما برحت أذكر وقفاتك عندى ، وأنا فى طفولتى ، على سرير مرضى ، تعنين بأمرى ، وتواسيننى فيما أجد من ضيق ، وما أقاسى من أوجاع .

وليس يبرح مخيلتى طيفك المأنوس صبح العيد ، جالسة فى حجرتك ، تستقبليننا نحن ضيوفك الأحباء الصغار ، فتشغلين أيدينا بما لذ من الحلوى وما راق من اللعب ، ثم تمسحين على رءوسنا فى فرحة وتحنن ، داعية لنا بعافية موفورة ، وعمر طويل . . . إنى لأتمثل الآن ، وأنا فى شيخوختى الواهنة ، تلك اللمسات الوادعة من أناملك الرقاق ، فأشعر من فورى ببهجة الطفولة وصفائها يعاودانى ، وكأنى بين يديك أسمع وأرى !

ولقد كانت قصائدك باكورة ما قرأت وما حفظت ، فما أنسى يوم أقبل علىّ أبى يدفع إلىّ ورقة خط فيها أبياتاً ضبطها بالمداد الأحمر ، وما لبث أن قال لى : اقرأ . . . فأطعت متمهلاً فى القراءة ، خشية العثار :

بيد العفاف أصون عز حجابى   وبعصمتى أسمو على أترابى

وواصلت تلاوتى ، وعن يمينى أبى ، يرنو إلىّ ؛ وهو يصوب الخطأ ، ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . . . وهكذا تلقيت من شعرك أول قبسة من نور الفضيلة ، وأسبق نفحة من مكارم الأخلاق !

وأذكر أننا نحن الأشقاء الثلاثة ، كنا فى منصرفنا من المدرسة إلى

البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية فى أهدافها ومراميها أنشودة الطريق ، نتسلى بالترنم بها فى نشوة وابتهاج .

والتزم أبى أن يملى علىّ من قصيدك فيما يختار لى من أشتات المنظوم والمنثور ، فتجمع فى كناشتى الصغيرة كثير من شعرك ، يزاحم : « قفا نبك . . . » وقصص « بيدبا » ، وما إلى ذلك من فرائد الأدب وعيونه .

وعلى الرغم مما كان لقصائدك من مكانة كريمة علىّ ، وما كان لها من أثر بالغ فى نفسى ، فإنها كلها قد تضاءلت وتخلفت يوم أملى علىّ أبى مرثيتك لابنتك التى تقولين فيها :

إن سال من غرب العيون بحور ... فالدهر باغ والزمان غدور

فلكل عين حق مدرار الدما ... وبكل قلب لوعة وثبور

لقد أطال أبى جلوسه إلىّ ، وهو يمليها علىّ ، حتى ملأت صفحتين كاملتين ، دون أن يضيق هو بالإملاء ، ودون أن أجد فى نفسى لذلك ملالة . . . وفى هذه المرة لم يلق أبى صعوبة فى الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات قصيدتك تنساب فى وجدانى انسياباً ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر ، كأنما يبعثها تيار خفىّ !

أكنت أفقه معانى هذه القصيدة حقاً ؟ لم أكن يومئذ لذلك أهلاً ، ولكننى أحببت القصيدة ما وسعنى أن أحب ، وزاد بها ولوعى يوماً بعد

يوم ، إذ أثارت بين جوانحى — جوانح الصبىّ الغرير — مشاعر دفينة ، فاتخذت منها لحناً شجيـًّا تطيب به نفسى كلما أسمعته نفسى !

بهذا تعلمت منك يا عمتاه فى مطلع أيامى أن الأثر الفنى الحق يقدر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر إياه ، قبل أن يقدر برجحانه فى موازين العقول والأذهان ، فالفن الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم وتفاوت مداركهم صدى فى الأفئدة ، وتجاوباً فى المشاعر .

رحمتا لك أيتها العمة . . . لقد كتبت قصيدتك هذه بذوب مهجتك التى أدماها الجرح ، فكانت صورة الشعور الحزين ، ولحن الألم العميق ، تردده الإنسانية الشقية حين يرميها القدر بحظ عاثر ، ورزء فاجع . ومن ذا الذى لا يعرف الألم ؟ ومن ذا الذى لا تترنح عاطفته لتلك النغمة الصادقة الصادرة عن محبة وإخلاص ، نغمة الأنين والحنين ؟ وهل يختلف فى ذلك أطفال وشبان وشيب ؟ وهل تتباين فيه الفطن والعقول ؟ إننا بشر ، نهتف من أعماق قلوبنا للحنك الخالد خلود العاطفة بين جنوب البشر !

زادتنى قصيدتك هذه بك قرباً ، وملأت نفسى لك حبـًّا ، وكيف لا وقد استطعت أن تكشفى لى ، وأنا على شاطئ هذا البحر الخضم ، بحر الحياة العصىّ ، ما يدخره الموج الملتطم بين طواياه من فنون المآسى والأحداث . وأن تبصرينى ، ولما أزل قريب النظر ، ببعض ما يحجبه

الأفق الجهم العريض من حقائق هذا الوجود ، تلك الحقائق التى يحيا الناس منها فى غفلات .

فسلام عليك ليوم كنت فيه قبساً لى أهتدى به فى مطلع الحياة . . .

وسلام عليك لهذا اليوم الذى ألتمس فيه من نجواك ما يعطر حياتى من حولى . . .

سلام عليك فى دار السلام !

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

الشخصيات العشرون

صفوة من أعلام المفكرين والأدباء والشعراء والفنانين ورجال الصحافة ، كان لهم فى العصر الحديث أثر بارز . وما يزال إشعاعهم الفكرى والثقافى يضىء الطريق للأجيال اللاحقة . عنى المؤلف الأستاذ « محمود تيمور » بأن يجلو شخصياتهم فى صور فنية تتناول جوانب حياتهم ، بفضل ما كان بينه وبينهم من الصداقة وصلات الزمالة ، كما تبرز النواحى الصميمة التى نبغوا فيها . وفى هذه المجموعة من الصور تتوضح سمات أصيلة لحياتنا الفكرية والثقافية فى الماضى القريب .